

إماما دار الهجرة النبوية: مالك بن أنس، ونافع بن أبي نعيم بين التدعيم والتتويج

رصد جديد للعلاقة بين هذين الإماميين في مجال الرواية
وايزاز للجانب القرآني المغمور عند الإمام مالك بن أنس

الأستاذ الدكتور محمد الماحي حميتو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فإن كتابة تراجم الرجال كتابة ممتعة وشيقة، لما فيها من التعرض لسيرهم وملامح شخصياتهم، والتعرف على تجاربهم في الحياة، والكثير من مواقفهم، وأقوالهم الماثورة عنهم، والكشف عن أحوالهم وآثارهم وأخبارهم، وإنما مع ما توفره من إمكانيات لكتابها لتبدو أمرا متاحا، ومجالا مباحا لكل من يريد، إذ ليست تقتضي منه أكثر من أن يكون له قدر كاف من البيان يمكنه من التعبير عن الحقائق، ومقدار مماثل من الخدق في استقراء الأخبار عن التراجم من مصادرها، والتوفر على ما لا بد من التوفر عليه من الرصيد العلمي والتاريخي الكافي، أو المقارب لحد الكفاية الذي يساعد على بناء الترجمة الموسعة، بجمع ما يتعلق بسير المترجمين وأخبارهم وأحوالهم وآثارهم العلمية وعلائقهم بحيطهم وأهل زمانهم، وما خلفوه من بعدهم من الصدى البعيد، مما اعتبره شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي عنوان المجد في قوله في قصيدته:

وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أقله العشر¹
غير أن الأمر مختلف في نظرنا عند إرادة الكتابة لتراجم رجالات الصدر الأول، ولا سيما حين يتعلق الأمر بالفحول منهم، وذلك حين تتقابل عند المترجم لهم شتى مجالات التألق في شخصياتهم، ومظاهر التفوق في ثقافتهم ومعارفهم، إلى الحد الذي قد تتكافأ فيه عندهم معالم الريادة ومجالي الإنافة والسبق، مع سمات التفرد والإمامة، وعناصر التبريز والإبداع حتى لا يدري المترجم أحيانا من أين يبدأ، ولا إلى أي هذه المجالات والمعالم والعناصر يسدد قوسه ويوجه رمائته، على حد ما وصفه الشاعر من حال خراش حين تصدى لسرب من الغزلان فلم يدر إلى أيها يوجه سية² القوس فقال:

تكاثرت الظباء على خراش
فما يدري خراش ما يصيد³

1 - من قصيدة المتنبي التي مطلعها: أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وما قولي كذا ومعني الصبر انظر "ديوان المتنبي البرقوقي" (254/2) وانظر قوله في البيت المستشهد به: فما مجد إلا السيف والفتكة البكر... إلخ.

2 - سية القوس: طرف قابها، وقيل رأسها، وقيل ما اغوج من رأسها.. والتسبب إليه: سيوي. الأصمعي: سية القوس: ما غطف من طرفها، ولها سياتان، وفي السية: الكظر وهو القرض الذي فيه الوتر، وكان رؤية ابن الحجاج يهزم سية القوس، وسائر القرب لا يهزونها، والجمع سيات، والماء عوض من الواو المحذوفة كعدة، وفي الحديث {وفي يده قوس أخذ بسيتها} ومنه حديث أبي سفيان {فألفنت علي سياتها} يعني سياتي القوس، عن "لسان العرب" حرف السين، (الجلسة).

3 - البيت من شواهد العربية.

ويزداد الأمر صعوبة فيما يخيل إلينا حين يتعلق الأمر بالقمم الباذخة في تاريخنا العلمي، وذلك حين يتصل بسير أعلام الأئمة الكبار من رجالات الصدر الأول من علماء التابعين وتابعي التابعين ومن اتصل بهذه الطبقة، ابتداء من أخذوا علمهم عن الصحابة الكرام مباشرة، أو عن الآخذين عن أخذ عنهم من تابعي التابعين الذين تلقفوه من أفواههم غضا طريا، ونقلوا إلى الخلف تراث السلف من الصفوة الذين حضروا الوحي، وشهدوا آي التزيل وهي تتزل على قلب الهادي الأمين عليه الصلاة والسلام، فنهلوا من تلك المناهل الصافية، وينابيعها الثرة المغدق، وتفتقت منهم المواهب في متزلات الوحي ومعاهده، بالروضة الشريفة والحرم النبوي، وتسلسل على أيديهم هذا الميراث النبوي من هذه العرصات النيرة مشافهة عن شوفه به، فضبطوه وحرروه، وأسندوه بالرواية عن أصحاب تلك الحلق العلمية التي كانت تزخر بها لذلك العهد أكناف ورحاب المسجد النبوي، التي كانت معرضا يوميا دائما لحلق القراءة لأي الذكر الحكيم لدى قرائه المتصدرين للعرض، وحلق الحديث والسنن والآثار لدى جلة الأئمة الأعلام المنتصبين لها، فما كان ينتقل معه طالب العلم في هذه الحلق تنقل الطير بين الأدواح الحظلة، أو تنقل النحل بين الأزاهر والمروج المخضرة النظرة، في رياض دمثات لا تقلص لها ظلال، ولا تنقطع لها ثمار، ولا يغيض لها ماء، ولا يحول هواء ﴿كَشَجَرَةٍ هَيَّيَّةٍ أَصْلَمًا نَابَتْ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِيُ أَكْثَمًا كُلِّ شَيْءٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾⁴.

فما أظن بعد ما وصفناه من الصعوبة بمن يرمي إلى الكتابة في ترجمة إمام مثل الإمام مالك بن أنس الذي انتهت إليه زبدة هذا الرصيد، وخلاصة هذا الحصيد، فاشتمل على كنوزه، وامتلكت لباب إبريزه، فعاش عهد الطلب من حياته في فتوته، يتقفي تلك الحلق المختلفة في أركان الروضة النبوية الشريفة ليأخذ كل فن عن إمامه، إلى أن استوى في هذه المعارف عوده، ورسخت فيها قدمه، وسطع فيها نجمه، ثم ما لبث مع الزمان أن صار في بلده مهطع الآمال، ومشد الرحال، ومضرب أكباد الإبل من الآفاق، مستوليا في إمامة الحديث والأثر والفقه وعلوم الرواية كلها على الأمد الأقصى.

على أننا نقول هذا عن هذا الإمام، ونحن نستشعر مقدار الهزيمة التي وقعت في حقه وفي حق كثير من الأئمة قبله، ومعه وبعده مما وقع من التقصير من لدن المترجمين لهم، وذلك بسبب اشتغالهم بالإمامة والشفوف الزائد في علم معين، فكان أن اتجه المترجمون لهم بالذات إلى التركيز على بيان مكانتهم في ذلك العلم خاصة، وإبراز مظاهر نبوغهم وتفوقهم فيه، ثم أهملوا، أو كادوا جوانب أخرى من ثقافتهم العلمية لم يقصروا عن المنافسة فيها لأربابها، والمزاوجة لأصحابها، إن لم يعدوا من الأئمة فيها، ومن ثم فقد أدى تقصير المترجمين لهم في تسليط الأضواء على تلك الجوانب إلى أن يبخسوا أقدارهم فيها، وهم كانوا من المبرزين، ومن المعدودين في طبقات أهلها عند المتخصصين والحفاظ المكثرين وقدماء المؤلفين.

⁴ - سورة إبراهيم: 24-25.

فهذا سعيد بن المسيب المخزومي مثلاً لا يعرف أكثر المترجمين له إلا أنه أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة، وهو المعني باسم سعيد في قول من نظم أسماءهم في قوله:
ألا كل من لا يقتدي بأئمة
فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم عبيد الله عروة قاسم
سعيد أبو بكر سليمان خارجة
ولكن سعيد بن المسيب هو عند أصحاب طبقات القراء معدود في الطبقة الثالثة من أئمة القراء بالمدينة⁵.

وهو عند الحافظ ابن الجزري «ممن وردت عنهم الرواية في حروف القرآن، قرأ على ابن عباس وأبي هريرة، وقرأ عليه عرضاً محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وتوفي سنة أربع وتسعين».

وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، لا يكاد يعرف الناس عنه إلا أنه كان صاحب حديث وكان معروفاً بصاحب أبي هريرة⁷ وأكثر من السنن عنه⁸، وهو الوارد في سلسلة إسناد حديث الإنصات يوم الجمعة⁹، لكنه عند أئمة القراء معدود في كبار قراء المدينة، وهو من شيوخ الإمام نافع بن أبي نعيم في القراء، ومن الخمسة الذي سماهم من شيوخه السبعين¹⁰، وكان يكتب المصاحف بالمدينة¹¹.

وهو بالإضافة إلى كل ذلك عالم بعلوم أخرى، ومنها العربية، فقد قال أبو الحسن القفطي في «إنباه الرواة على أنباه النحاة»: «قال أهل العلم: إنه أول من وضع علم العربية، والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي¹²، وأظهر هذا العلم بالمدينة، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة، وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قریش، وما أخذ أهل المدينة النحو إلا منه، ولا نقلوه إلا عنه... قال: ويروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة -رضي الله عنه- اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين في علم لم يثبه في الناس، فممنهم من قال: تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما، وقيل: كان ذلك من علم أصول الدين، وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة»¹³.

وقل مثل هذا فيمن تقابلت في شخصياتهم مظاهر الإمامة في أكثر من فن من أعلام التابعين وتابعي التابعين والآخرين عنهم، وحسبك بسعيد بن جبير في القراء والفقهاء، وبالحسن البصري في القراء والمفسرين والفقهاء، ومجاهد بن جبر في القراء المفسرين، وسليمان بن مهران

⁵ - انظر كتاب "معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار" للحافظ شمس الدين الذهبي: 56/1 ترجمة 7.

⁶ - غاية النهاية في طبقات القراء: 308/1 ترجمة رقم 1354.

⁷ - طبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي: 45 ترجمة رقم 87 وغاية النهاية: 381/1 ترجمة 1632.

⁸ - معرفة القراء الكبار: 63/1 الطبقة الثالثة رقم: 13.

⁹ - المراد حديث مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه... الذي يجري التنصت به في المغرب قبل أذان الجمعة.

¹⁰ - كتاب السبعة في القراءات لأبي بكر بن مجاهد البغدادي (ص 61) ومعرفة القراء (63/1) رقم 13، وغاية النهاية (381/1).

¹¹ - كتاب مشاهير علماء الأمصار لابن حبان (ص 77) رقم الترجمة 559.

¹² - اسمه ظالم بن عمرو من التابعين، والإجماع على أنه واضع علم النحو بإشارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

¹³ - إنباه الرواة: 172/2 - 173 ترجمة رقم 386.

الأعمش في القراء والمحدثين، وأبي عمر وابن العلاء، وأبي الحسن الكسائي، والخليل بن أحمد، وعيسى بن عمر الثقفي، في إمامة القراءة والرواية اللغوية والأدبية مما لا يتسع لنا المجال للإفاضة فيه، وتكفي شهرة حالهم فيه عن التكلف لإثباته والتدليل عليه.

وقد لا يعلم كثير من الناس أن عبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب الرواية والملح الأدبية، هو أحد رواة قراءة نافع بن أبي نعيم المدني¹⁴، وأن الإمام الواقي عبد الرحمن بن واقد البغدادي صاحب المغازي، هو أيضا كما قال ابن الجزري: «مقرئ معروف، أخذ القراءة عرضا عن حمزة بن القاسم الأحول، وذكر جماعة كبيرة من شيوخه في القراءة من تلاميذ حمزة الزيات ونافع بن أبي نعيم وأبي عمرو بن العلاء وعلي بن حمزة الكسائي¹⁵، وهو مترجم عند ابن الجزري في طبقات القراء¹⁶، وأسند الهذلي في الكامل قراءته على نافع¹⁷».

فإذا تحدثنا عن فقهاء الأمصار من الأئمة المشهورين، وجدنا اهتمام الناس بهم إنما ظل منصرفا من أخبارهم إلى ما وصلوا فيه إلى مستوى الإمامة والإنافة على أهل العصر، وكان لهم فيه أتباع وطلاب، وقل من الناس من يلتفت إلى جوانب أخرى من مكونات ثقافتهم ومظاهر إمامتهم وتبريزهم.

ومن هنا كانت شخصيات مالك والشافعي وأبي حنيفة وأبي عمرو الأوزاعي وأبي عبد الله أحمد بن حنبل إنما تقدم إلى عامة الطلاب من خلال مذاهبهم الفقهية، ولا يكاد يدور في خلد أحد من غير المختصين، أن كل هؤلاء ممن لهم مقام مذكور بين القراء، وإن كانوا لم يتفرغوا لذلك، ويتصدروا للإفادة بما عندهم فيه من روايات وأسانيد عالية، ولهذا طاب لنا أن نتخذ من هذا الأمر مدخلا للحديث عن مالك القارئ الفقيه، وأن نستهل ذلك بالتنظير لحاله بإشارات موجزة تنبه على هذه الظاهرة المزدوجة عند أمثاله من أئمة الفقهاء.

الشافعي مقرئا:

فأما ما يتعلق بالإمام محمد بن إدريس الشافعي مقرئا: فقد كان في زمنه أشهر من أن يتكلف له دليل، وقد ترجم له الحافظ ابن الجزري في "طبقات القراء"، بل ذكر أنه قرأ القرآن بروايته، فقال: «أبو عبد الله الشافعي -رضي الله عنه- أحد أئمة الإسلام، أخذ القراءة عرضا عن إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين المكي، روى القراءة عنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم¹⁸، وقرأت بروايته القرآن من كتاب المستنير¹⁹، وحدثني بها منه ومن كتاب الكامل²⁰

14 - انظر قول ابن الجزري عنه في ترجمته: «إمام اللغة، وأحد الأعلام فيها وفي العربية والشعر والأدب وأنواع العلم، روى القراءة عن نافع وأبي عمرو، وله عنهما نسخة، وروى حروفا عن الكسائي... تفرد عن نافع بإثبات ألف في «حاشا» ويخفف (العزير الحمد لله) في الحالين، أعني الجلالة» غاية النهاية (470/1) ترجمة رقم 1965.

15 - غاية النهاية 381/1 ترجمة رقم 1624.

16 - نفسه (381/1).

17 - انظر "الكامل في قراءات العشر والأربعين الزائدة عليها" (لوحة 48).

18 - هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المصري الإمام فقيه أهل مصر، روى القراءة عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله- روى القراءة عنه جماعة ذكرهم ابن الجزري، منهم محمد بن جرير الطبري، توفي سنة 268هـ. "غاية النهاية" (179/2) ترجمة رقم 3160.

غير واحد. ثم ذكر سنده بالقراءة بما إلى محمد بن عبد الحكم الآنف الذكر من طريقتين قال: حدثنا محمد بن إدريس الشافعي بسنده إلى ابن كثير المكي²¹. فهو إذن صاحب رواية في قراءة عبد الله بن كثير المكي، كانت معروفة عند الكثيرين من الحفاظ المعبرين.

وأما رواية الإمام أبي القاسم الهذلي لها، فقال في أسانيده لقراءة ابن كثير المكي في كتاب الكامل: «رواية أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي -رحمة الله عليه- قرأت على أبي محمد عبد الله بن محمد الجلباني بـ"تنيس" قال: قرأت على عبد الباقي بن عيين الغزال على محمد بن أحمد بن حمدان، على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وأخبرنا القهндزي عن أبي الحسين عن عبد الله بن عدي قال: حدثنا محمد بن أحمد بن حمدان، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري، قال: حدثنا محمد بن إدريس الشافعي والكزيري وسفيان ومسلم بن خالد أنه أخذ القراءة عن إسماعيل بن عبد الله القسط عن ابن كثير²²».

ومن الفوائد العلمية القيمة التي أفاد بها الحافظ ابن الجزري مما يتعلق برواية الشافعي لقراءة ابن كثير المكي، ما ذكره في كتاب "منجد المقرئين" في حديثه عن تواتر القراءات العشر قوله: «ومما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلد متواترة بالنسبة إليهم، أن الإمام الشافعي -رضي الله عنه- جعل البسملة من القرآن، مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضي عدم كونها من القرآن، لأنه من أهل مكة، وهم يثبتون البسملة بين السورتين، ويعدها من أول الفاتحة آية، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسط عن ابن كثير، فلم يعتمد على روايته عن مالك في عدم البسملة، لأنها آحاد، وأعتمد على قراءة ابن كثير، لأنها متواترة، وهذا لطيف فتأمل»²³.

أبو حنيفة مقرباً:

ويقال مثل هذا عن انصراف اهتمام الناس عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت مقرباً، وإنما هو عند الأكثرين فقيه ومؤسس لمدرسة الرأي بالعراق، لكنه عند أئمة القراء فقيه مقرئ معاً، فقد جاء عند الحافظ ابن الجزري أنه: «روى القراءة عرضاً عن الأعمش وعاصم وعبد الرحمن بن أبي ليلى.. وروى القراءة عنه الحسن بن زياد. قال ابن الجزري:

19 - كتاب المستدر في القراءات العشر للإمام أبي طاهر أحمد بن علي بن سوار البغدادي (ت496هـ) وهو من مصادر الحافظ ابن الجزري. انظر إسناده له رواية وقراءة بمضمونه في صدر كتاب النشر في القراءات العشر (82/1)، وترجمة ابن سوار في معرفة القراء الكبار للذهبي: (362-363) الطبقة 11 رقم الترجمة 28 طبع مؤخرًا.

20 - كتاب الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها لأبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي البصري (ت465هـ) (مخطوط).

21 - غاية النهاية (95-97) ترجمة 2840.

22 - الكامل للهذلي: لوحة 53 مصورة عن مخطوطة مكتبة الأزهر الشريف بمصر.

23 - انظر بقية كلام ابن الجزري في هذا التخريج اللطيف في "منجد المقرئين" (ص69).

وقد أفرد أبو الفضل الخزاعي²⁴ قراءته في جزء رويناه من طريقه، وأخرجها الهذلي في كامله، إلا أنه تكلم في الخزاعي بسببها كما تقدم في ترجمته²⁵، وفي النفس من صحتها شيء، ولو صح سندها إليه لكانت من أصح القراءات²⁶.

قلت: ما ذكره ابن الجزري مذكور في كتاب الهذلي تحت عنوان «اختيار أبي حنيفة رواية الحسن بن زياد اللؤلؤي»²⁷، قال الهذلي: أخبرنا أبو المظفر عبد الله بن شبيب عن الخزاعي عن المطوعي عن عبد الله بن سليمان عن عمر بن شبة النميري عن محمد بن الحسن بن زياد عن أبيه قال: سمعت أبا حنيفة يقرأ بهذه الأحرف، وقرأت عليه.

فقلت له: على من قرأت؟ قال: على الأعمشي بإسناده، وعلى عاصم بإسناده، وعلى ابن أبي ليلى عبد الرحمن بإسناده إلى رسول الله ﷺ²⁸.

وأما ما ذكره ابن الجزري من أفراد أبي الفضل الخزاعي لقراءة أبي حنيفة في جزء، فيعني تجريده لها بالتأليف مفردة، وقد ألف فيها أيضا حافظ المشرق في زمنه أبو العلاء أحمد بن الحسن الهمداني (ت569هـ) كتاب قراءة أبي حنيفة النعمان، ووصل كتابه إلى زمننا مخطوطا في بعض الخزائن²⁹، وهذا يدل على صحتها واعتمادها.

الإمام أحمد بن حنبل مقرأ:

ولم يكن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله إماما محدثا، أو فقيها صاحب مذهب فحسب، بل كان أيضا في عداد المقرئين، وقد ذكر الإمام أبو القاسم الهذلي اختياره في القراءة فقال في كتاب "الكامل": «اختيار أحمد بن حنبل: قرأت على أبي القاسم حمزة بن علي الزيدي بحران قال: قرأت على عبد الله بن مالك على عبد الله بن أحمد بن حنبل على أبيه. وقرأ أحمد على بن يحيى بن آدم وابن قلوفا وعبيد بن الصباح وإسماعيل بن جعفر بإسنادهم»³⁰.

24 - هو محمد بن جعفر بن عبد الكريم بن يديل أبو الفضل الخزاعي الجرجاني مؤلف كتاب المنتهى في الخمسة عشر، ويشتمل على مائتين وخمسين رواية -وما زال مخطوطا- وكتاب تهذيب الأداء في السبع، وكتاب الواضح، وهو إمام حاذق مشهور أخذ القراءة عرضا عن الحسن بن سعيد المطوعي وجماعة كبيرة، وروى عنه أبو العلاء الواسطي وجماعة، توفي سنة (408هـ) ترجمته: في معرفة القراء الكبار للذهبي (304/1-305) طبعة 10 ترجمة 2. وغاية النهاية (109/2-110) ترجمة 2893.

25 - قال الحافظ الذهبي: «حكى أبو العلاء الواسطي أن الخزاعي وضع كتابا في الحروف نسبة إلى أبي حنيفة -رحمه الله- فأخذت خط الدارقطني وجماعة بأن الكتاب موضوع لا أصل له، فكبر ذلك عليه، ونزع عن بغداد» معرفة القراء (305/1) الطبعة 10 رقم 2. وانظر مثل ذلك عند ابن الجزري في النشر في القراءات العشر (16/1).

26 - غاية النهاية: (342/2) ترجمة 3745.

27 - كوفي فقيه، قال ابن الجزري: «وهو ضعيف في الرواية جدا، كذبه غير واحد، والحق عنده ما ينسب من قراءة أبي حنيفة خلفه عليه، مات سنة 204هـ، وكان فقيها كبيرا» غاية النهاية (213/1) ترجمة 975. ومعنى قراءة أبي حنيفة عليه أنه أخذ قراءة أبي حنيفة عنه سمعا، لأنه معروف بصحته لأبي حنيفة.

28 - الكامل للهذلي: لوحة 74-75.

29 - توجد منه نسخة خطية بمكتبة الشعب المالي -انطاليا رقم 818. انظر الفهرس الشامل للمخطوطات العربية والإسلامية نشر المجمع الملكي الأردني مؤسسة مآب - عمان، الجزء الأول 116/1 قراءات. وانظر ترجمة أبي العلاء الهمداني في معرفة القراء الكبار للذهبي: (436-434/2) الطبعة 13 رقم 29. وغاية النهاية لابن الجزري (204/1-206) ترجمة رقم 945.

30 - الكامل: لوجه 75.

وترجم له ابن الجزري في "طبقات القراء" فقال: «أحد أعلام الأمة، وأزهد الأئمة.. أخذ القراءة عرضا فيما ذكره الهذلي عن يحيى بن آدم، وعبيد بن عقيل وإسماعيل بن جعفر وعبد الرحمن بن قلوفا، وعندي أنه إنما روى الحروف³¹، روى عنه القراءة ابنه عبد الله، ذكر ذلك الهذلي في كامله...»³².

الإمام الأوزاعي مقرنا:

وللإمام أبي عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام في الفقه، رواية أيضا في القراءة. فقد قال الحافظ ابن الجزري في ترجمة الإمام مالك بن أنس إمام المذهب: «روى القراءة عنه أبو عمرو الأوزاعي ويحيى بن سعيد -يعني الأنصاري- والحلواني -أحمد بن يزيد- في قول الهذلي ولا يصح»³³.

فهؤلاء الأئمة الفقهاء كانوا معدودين في زمانهم في قراء أمصارهم، وإنما غلب عليهم ما كان يرحل إليهم بسببه أهل الأقطار مما لا يجدونه عند غيرهم، فتنسبوا إلى ما اشتهروا به وغلب عليهم من تلك العلوم، ولم يكد أحد يعني بمعرفة إنافتهم في علوم أخرى، ومن أهمها علم القراءات، وهكذا نجد معدودا في عداد المقرنين: الحسن البصري، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد، وأبا عبيد، وابن حريز الطبري، وسواهم كثير³⁴.

الإمام مالك بن أنس قارنا:

أما الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي إمام دار الهجرة في الفقه والحديث فكان أيضا مقرنا معتبرا.

قال الحافظ ابن الجزري في ترجمة له في الطبقات بعد ذكره لسلسلة نسبه: «إمام دار الهجرة وصاحب المذهب، أخذ القراءة عرضا عن نافع بن أبي نعيم، وروى القراءة عنه أبو عمرو الأوزاعي، ويحيى بن سعيد -يعني الأنصاري- والحلواني في قول الهذلي، ولا يصح. ولد سنة ثلاثة وتسعين³⁵، ومات سنة تسع وسبعين ومائة»³⁶.

فالرجل إذن لم يكن قارنا فحسب، عرض على إمام أهل المدينة قراءته كغيره ممن روى عنه، ولكنه كان مقرنا أيضا يروي عنه أهل بلده كما يروي عنه الغرباء، وقد أخذ القراءة عن غير نافع، فكان له فيها من المتزلة ما يسعى أمثاله من حذاق طلبية العلم إلى أن يكون مثله لهم، لكنه زاد على كثير منهم بعرض قراءته على إمام دار الهجرة في القراءة نافع بن أبي نعيم المدني

³¹ - يعني رواية مسائل الخلاف رواية وإسماعيل، لا قراءة وعرضا.

³² - غاية النهاية: (112/1) ترجمة رقم 515.

³³ - غاية النهاية: (36-35/2) ترجمة رقم 2642.

³⁴ - انظر تراجمهم على التوالي في "غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجزري (1-2035 - 1-308 - 2-308 - 2-34 - 17-18 - 2-106-108).

³⁵ - تصحفت في "غاية النهاية" إلى: «وسبعين» بالسین والباء، وانظر التحقيق لتاريخ وفاة مالك في "الانتقاء" لابن عبد البر: (ص44-45).

³⁶ - غاية النهاية: (36-35/2) رقم الترجمة 2642. وانظر في الخلاف في سنة مولده "ترتيب المدارك" ليعاض (1-117-119).

(70-169هـ)، فحاز بذلك شرف الانتساب إلى هذا الإمام والتلمذة عليه كما سوف نراه، ولا شك عندي أنه قرأ على غير نافع أيضا، إلى أن عرضه في النهاية إنما كان على نافع بن أبي نعيم قارئ المدينة الذي لم يكن بها أقرأ للسنة منه في زمنه.

بيت الإمام مالك وصلته بالقراءات:

ولم يكن اهتمام مالك بن أنس بهذا الشأن مما أحدث طفرة بغير مقدمات وبواعث تحفزه إلى الضرب فيه بسهم وافر، فقد كان ينتمي إلى بيت له سابقة محمودة فيه، كما عرف لغيره من أبناء هذا البيت قدم راسخة في روايته وتحمله، وحظوة عند بعض الخلفاء مكنتهم من متابعة النشاط القرآني بالمدينة والعناية بالمصاحف وتدوينها.

وقد لخص عياض -رحمه الله- نقلا عن عدد من الأئمة جملة من أخبار سلفه وأهل بيته، وأن القاضي بكر بن العلاء القشيري ذكر أن أبا عامر بن عمرو جدُّ والد الإمام مالك كان من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: وشهد المغازي كلها مع النبي -صلى الله عليه وسلم- خلا بدرا قال:

وابنه مالك جد مالك، وكنيته أبو أنس من كبار التابعين، يروي عن عمر وطلحة وعائشة وأبي هريرة وحسان بن ثابت، وكان من أفاضل الناس وعلمائهم، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلا إلى قبره، وغسلوه ودفنوه³⁷، وكان خدنا لطلحة، يروي عنه بنوه: أنس وأبو سهيل نافع والربيع، مات سنة ثنتي عشرة ومائة³⁸.

وما يعني لنا بالذات في هذا السياق، أن مالك بن أبي عامر هذا جد مالك، كان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان المصاحف، وكان عمر بن عبد العزيز يستشير، وقد ذكر ذلك مالك في جامع موطنه³⁹.

ومن المعلوم أن سيدنا عثمان -رضي الله عنه- جمع المصحف الإمام بالتدوين في خلافته حول عام ثلاثين من الهجرة، وكان الذي تولى له هذا الجمع هو زيد بن ثابت الأنصاري -رضي الله عنه- وسعيد بن العاص وابن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام⁴⁰، ولم يذكر فيهم أبو عامر بن عمرو جد مالك بن أنس المذكور، ولعله -وإن لم يكن ضمن هيئة التدوين- كان في الكتبة الذين عهد إليهم بانتساخ المصحف الإمام، والإرسال بنسخ منه إلى أهم

37 - يعني عند قتله على يد المستورين عليه داره بعد حصاره بما سنة 36هـ رضي الله عنه وأرضاه.

38 - ترتيب المدارك: 112/1-113.

39 - ترتيب المدارك: 113/1 واستشارة عمر له في آخر الموطأ من الجامع: عن مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك أنه قال: «كنت أسير مع عمر بن عبد العزيز فقال: ما رأيك في هؤلاء القدرية؟ فقلت: أرى أن تستيهم». (الموطأ: 550 رقم الأثر 1665).

40 - انظر تفاصيل جمع القرآن في عهد أبي بكر ثم في عهد عثمان في حديث زيد الطويل في صحيح البخاري: باب جمع القرآن، وكذا في حديث أنس بن مالك عن حذيفة بن اليمان في الباب نفسه: كتاب فضائل القرآن: 225/3-227.

الأمصار⁴¹، كما أشار إلى هذه النسخ الإمام الشاطبي في "عقيلة أتراب القصاصد في أسنى المقاصد" في قوله:

فأمسك الصحف الصديق ثم إلى الفاروق أسلمها لما قضى العمرا
وعند حفصة كانت بعد فاختلف القراء، فاعتزلوا في أحرف زمرا
وكان في بعض مغزاهم مشاهدتهم حذيفة ثراى في خلفهم عبرا
فجاء عثمان مذعورا فقال له: أخاف أن يخلطوا فأدرك البشرأ
فاستحضر الصحف الأولى التي جمعت وخص زيدا ومن قريشه نفرا
على لسان قريش فاكبوه كما على الرسول به إنزاله انتشرا⁴²
فجردوه كما يهوى كتابته ما فيه شكل ولا نقط فيحتجرا⁴²
وسار في نسخ منها مع المدني كوف وشام وبصر تملأ البصرأ
وقيل: مكة والبحرين مع يمن ضاعت بها نسخ في نشرها قطرا⁴³.

وقد احتفظ جد مالك هذا بنسخة لنفسه، فكانت ذخيرة يفخر بها أهل بيته، ويستعيدون بها ذكرى هذه المكرمة، كما أستعملها مالك نفسه وثيقة تاريخية يرجع إليها إذا أحب التعرف على ما كان عليه رسم المصحف المدني في الصدر الأول قبل اعتماد مصحف الجماعة الذي أمسى يحمل اسم "المصحف الإمام" أو "العثماني".
قال القاضي أبو بكر بن العربي في "أحكام القرآن":

«روى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: أخرج إلينا مالك مصحفا لجده زعم أنه كتبه في أيام عثمان حين كتب المصاحف، مما فيه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾⁴⁴ بالواو...»⁴⁵
فاحتفاظ أهل هذا البيت بمصحف هذا شأنه في مخالفة قراءة مدونة في المصحف المدني الإمام، يدل على خصوصية لهم في العلم والفهم، إذ لو كانوا من غمار الناس لبادروا إلى التخلص من مصحف هذا بعض ما فيه مما قد يفسر على أنه خروج عن القراءة المرسومة في مصحف المدينة النبوية، وأن الاحتفاظ به مع ذلك دليل على انحراف عن مذهب الجماعة، وقراءة نافع التي كان الإمام مالك نفسه يذهب إلى أنها سنة أهل المدينة، أو أنها السنة⁴⁶.

41 - يدل على ذلك ما في حديث أنس المتقدم، وقوله: «وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا».

42 - فيحتجر: فيمنع من التصرف في القراءة: انظر شرح السخاوي: الوسيلة إلى كشف العقيلة: 69-70 وشرح ابن القاصح تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد: 18-19.

43 - عقيلة الأتراب للشاطبي بشرح السخاوي(ص69)، وضاعت: تحتمل ذهبت فلم يتوقف لها على أثر، أو ضاعت: ضاع نشرها وطيبها بمعنى فاح وانتشر. "تلخيص الفوائد"(ص18-19).

والقطر: بضم القاف والطاء وقد تسكن: العود ذو الرائحة الطيبة"الوسيلة"(ص78).

44 - الآية الأخيرة من سورة الشمس. وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن العلاء وعاصم وحجة والكسائي من السبعة، وقرأ نافع وابن عامر: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قال ابن مجاهد: وكذلك هي في مصاحفهم. انظر السبعة في القراءات لأبي بكر بن مجاهد: 689.

45 - أحكام القرآن لابن العربي: القسم الرابع: 1941.

46 - سيأتي هذا الأثر وما أراد به مالك رحمه الله.

وإنما يهمنا هنا إثبات جلالة قدر سلف هذا الإمام، ومكانتهم في الاشتغال بعلوم القرآن في الجملة.

وكان لوالد الإمام مالك أيضا موضع في أهل الرواية، إلا أنه لم يعمر طويلا، فقد نقل عياض عن أبي القاسم اللالكائي قوله: «كان لأبي أنس مالك بن أبي عامر أربعة بنين، أحدهم أنس أبو مالك الفقيه. قال غيره: وبه كان يكنى، روى عنه ابنه مالك»⁴⁷، قال عياض: قال أبو إسحاق بن شعبان: روى مالك عن أبيه عن جده عن عمر حديث الغسل واللباس⁴⁸ قال: وقال ابن وهب: سئل مالك عن أبيه فقال: كان عمي أبو سهيل ثقة»⁴⁹.

«قال أبو مصعب: كان أبو مالك بن أنس مقعدا، وكان له قصر بالجرف، يعرف بقصر المقعد. قال غيره: وكان يعيش من صنعة النبل»⁵⁰.

أما ثاني أبناء أبي أنس فهو أبو سهيل، واسمه نافع⁵¹ وقد روى عنه مالك أيضا، وإسماعيل ومحمد ابنا جعفر بن أبي كثير والدراردي وغيرهم، قال عياض: «وقد روى عنه ابن شهاب أيضا»⁵².

وثالث أولئك الأبناء: هو أويس وهو جد إسماعيل بن أبي أويس وأخيه أبي بكر⁵³. ورابعهم: الربيع وله رواية، وقد روى أربعتهم عن أبيهم مالك بن أبي عامر المذكور⁵⁴. وعمومة مالك ثلاثة: نافع والنضر ويسار. قال الضراب: كان لمالك عم يقال له النضر، وبه كان يعرف مالك أولا، كان يقال له: مالك ابن أخ النضر، فما لبث إلا يسيرا حتى قال الناس: النضر عم مالك⁵⁵.

وقال مالك: كان لي أخ في سن ابن شهاب -الزهري- فألقى أبي يوما علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: ألهتك الحمام⁵⁶.

«وكان لمالك ابنان: يحيى ومحمد، وابنة اسمها فاطمة، وهي زوج ابن أخته وابن عمه إسماعيل ابن أبي أويس»⁵⁷.

أما ابنه يحيى فله عن أبيه نسخة، وروي أنه روي الموطأ عنه باليمن، وروي عنه محمد بن مسلمة⁵⁸.

47 - ترتيب المدارك: 113/1.

48 - نفسه(114/1).

49 - نفسه، ومراده أنه لم يرد أن يتعرض لرواية أبيه بتزكية أو تحريج، وإن كان في السياق ما يوحي أنه عنده ليس بذلك.

50 - نفسه: 114/1.

51 - ترجمته عند ابن حجر في تهذيب التهذيب 409/10 والخلاصة للخزرجي: 343.

52 - ترتيب المدارك: 114/1.

53 - نفسه(114/1).

54 - نفسه: 114-115.

55 - يعني أنه كان يعرف بعمه، فما لبث أن اشتهر فأسمى عمه يعرف به.

56 - يعني اللعب بالفراخ أو اصطادها. انظر ترتيب المدارك: 115/1.

57 - ترتيب المدارك: 115/1.

58 - نفسه: 115/1.

وأما ابنه محمد فقدم مصر وكتب عنه، وحدث عنه الحارث بن مسكين وزيد بن بشر⁵⁹. وزاد ابن عبد البر في بنيه: حمادة وأم البهاء⁶⁰. وعلى أي حال فقد كانت بيته مالك بيته علم من أطرافها، وإن كان لم يقدر أن يظهر فيها من يخلفه في مثل مستواه ولا قريب منه، ولقد قال موسى القروي⁶¹ وهو من تلامذته المعروفين: «كنا نجلس عنده وابنه يحيى يدخل ويخرج ولا يجلس، فيقبل - مالك - علينا ويقول: إن مما يهون علي أن هذا الشأن لا يورث، وأن أحدا لم يخلف أباه في مجلسه، إلا عبد الرحمن بن القاسم⁶²، وفي ذات الوقت كانت ابنته فاطمة مشغوفة بالعلم. قال الزبيري: كانت للمالك ابنة تحفظ علمه - يعني الموطأ - وكانت تقف خلف الباب، فإذا غلط القاري نقرت الباب، فيفطن مالك فيرد عليه، وكان ابنه محمد يجيء وهو يحدث، وعلى يده باشق⁶³ ونعل كيسانية، وقد أرخى سراويله عليه، فيلتفت مالك إلى أصحابه ويقول: إنما الأدب أدب الله، هذا ابني، وهذه ابنتي!»⁶⁴.

ولم يشتهر في بني مالك بالقراءة قارئ مذكور، أعني قراءة القرآن بروايته، وكان ذلك من نصيب بيت بني عمه أبي أويس المدني، فكان فيهم:

1- إسماعيل بن أبي أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، واسم أبي أويس عبد الله، وقيل عبد العزيز، وقيل أويس⁶⁵ أبو عبد الله المدني ابن عم الإمام مالك بن أنس وابن أخته وزوج ابنته فاطمة الفقيهة الأنفة الذكر.

قال عياض: قرأ علي نافع بن أبي نعيم، وله عنه نسخة⁶⁶، وهو آخر من روى عنه بالمدينة، وسمع أباه وأخاه⁶⁷ وخاله مالكا، وإبراهيم بن سعد⁶⁸ وسليمان بن بلال⁶⁹.

أما رواة القراءة عنه، فقال الحافظ ابن الجزري: روى القراءة عنه أحمد بن صالح وإبراهيم بن سعيد الجوهري وأبو حاتم السجستاني وأحمد بن يزيد الحلواني فيما ذكره الهذلي⁷⁰.

59 - نفسه: 116-115/1.

60 - نفسه: 116/1.

61 - هو موسى القروي المدني. انظر كتاب قراءة الإمام نافع عند المغاربة لكتابه: 36/6.

62 - نفسه (117/1) ويعني أحد شيوخه في العلم، وهو عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فهذا هو الذي رآه مالك قد خلف والده القاسم بن محمد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، فحل محله بعد موته في حلقة العلمية بالمسجد النبوي.

63 - الباشق: نوع من أنواع الصقور.

64 - ترتيب المدارك (116-117).

65 - ترتيب المدارك: 151/3.

66 - يعني أنه قيد عنه روايته في كتاب خاص بها.

67 - هو عبد الحميد الآتي.

68 - هو إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من علماء المدينة من تابعي التابعين ولي قضاء بغداد، وحدث بها. مات سنة 183 - طبقات ابن سعد: 322/7.

69 - من فقهاء المدينة، وكان يلي السوق بها، ثم ولي القضاء للرشيد، توفي سنة 276. انظر كتاب مشاهير علماء الأمصار لـ محمد بن حبان: 140 ترجمة 1111 وترتيب المدارك: 30/3-34.

70 - غاية النهاية: 162/1 ترجمة 755.

وقد أسند ابن مجاهد روايته في صدر كتاب السبعة عند ذكر قراءة نافع فقال: «وأخبرني الأشثاني⁷¹ عن أحمد بن صالح عن إسماعيل وأبي بكر⁷² بني أبي أويس عن نافع ببعض الحروف»⁷³.

2- وأسند ابن مجاهد أيضا في خبر ما يدل على أن والده أيضا كان من القراء من طبقة الإمام نافع حيث قال: «حدثنا إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل⁷⁴ قال: حدثنا إسماعيل بن أبي أويس قال: حدثني أبي قال: أخبرني يزيد بن رومان⁷⁵ مولى آل الزبير، أنه أخذ القراءة عرضا عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة»⁷⁶.

3- ومن قراء هذا البيت أيضا: أبو بكر عبد الحميد بن أبي أويس الأصبحي المدني ابن عم الإمام مالك، ويعرف بالأعشى، روى الحافظ أبو عمرو الداني بسنده إليه أنه قال: «صحب نافع بن أبي نعيم أربعاً وعشرين سنة، لا أفارقه إلا في منزله»⁷⁷.

قال عياض: يروي عن أبيه وأخيه وخاله سمالك- وابن عجلان وابن أبي ذئب، وسليمان بن بلال، وقرأ على نافع القارئ، وكان صاحب عربية وقراءة، أخرج له البخاري ومسلم وإبراهيم بن منذر وإسحاق بن موسى وسليمان بن بلال، وعبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة، ومحمد بن عبد الحكم»⁷⁸.

وقال الحافظ الذهبي: «قرأ القرآن على نافع الإمام، فكان بقية أصحابه»⁷⁹ وقال ابن الجزري: «ثقة، أخذ القراءة عرضا وسماعا على نافع بن أبي نعيم»⁸⁰ وقال ابن مجاهد في أسانيده في قراءة نافع: «وأخبرني بها أحمد بن محمد بن صدقة عن إبراهيم بن محمد المدني عن أبي بكر بن أبي أويس، وهو أبو بكر الأعشى ابن أخت الإمام مالك بن أنس عن نافع»⁸¹.

4- أحمد بن أبي أويس. ولعله أخ لعبد الحميد وإسماعيل، وقد ذكره ابن الجزري في الرواة عن نافع مع أبي بكر ومحمد القورسيين وقال: والكل مجهولون لا أعرفهم»⁸².

71 - هو الحسن بن علي بن مالك الأشثاني. ترجمته في غاية النهاية: 225/1 ترجمة رقم 1022. وقد ذكر في ترجمته أنه روى القراءة عن أحمد بن صالح وسمع منه كتابه في قراءة نافع.

72 - هو عبد الحميد الآتي.

73 - كتاب السبعة في القراءات: 90 وانظر ترجمته في ترتيب المدارك: 154/3 وطبقات ابن سعد 483/5 وغاية النهاية: 162/1.

74 - هو القاضي إسماعيل الفقيه المالكي صاحب المسبوط في الفقه وأحد الرواة للقراءة عن قالون عن نافع.

75 - من شيوخ نافع في القراءة.

76 - السبعة (ص 60-61) وترتيب المدارك (156/3).

77 - ترتيب المدارك: (156/3).

78 - ترتيب المدارك: (155/3-156).

79 - تذكرة الحفاظ للذهبي: 409/2.

80 - غاية النهاية: (360/1) ترجمة رقم: 1543.

81 - السبعة في القراءات: 90.

82 - غاية النهاية: 190/1 ترجمة جحدر بن عبد الرحمن اليماني رقم 872.

5- وما وقفت عليه مما له صلة بالإمام مالك، ما جاء في ترجمة مطرف بن عبد الله بن مطرف الفقيه من أنه كان أيضا صاحب الإمام مالك وابن أخته، وأنه صحب مالكا سبع عشرة سنة، وكان مقدما في أصحابه⁸³، وما أحسبه إلا من رواة قراءة نافع، فقد وقفت له على رواية الحديث: {الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص فعليكم بالسنة}، أخرجه الجوزقاني⁸⁴ عن أبي هريرة مرفوعا، وقال: حسن غريب، تفرد به عن الأعرج⁸⁵ نافع بن أبي نعيم، وثقه أبو نعيم، وتفرد به عن نافع مطرف بن عبد الله⁸⁶.

وبالجملة فقد كان أهل هذا البيت أهل علم وقراءة، ولعلنا لو وصلتنا أخبارهم مفصلة لوقفنا على أكثر مما وقفنا عليه في هذه اللمحات، ومن شأن ما ذكرناه من هذه الاهتمامات في هذا البيت، ما يمكن أن يساعدنا على تمثيل ما ذكرناه للإمام مالك من منزلة في رواية قراءة بلده، وعناية بتحملها وعرضها على من عنده من قراء المدينة، وإن كان لم ينقل إلينا من أخبار ذلك إلا التمر اليسير مما تتصل جملته بتلمذه على قارئ هذا البلد وإمامه في القراءة في زمنه نافع بن أبي نعيم رحمه الله.

إماما دار الهجرة بين التدبج والتتويج

ولقد اخترنا هذا العنوان قصدا للمعنى الذي يحمله لا مجرد المجانسة والمناسبة اللفظية، وذلك أن التدبج عند أهل الرواية الحديثية يعني سماع الراويين بعضهما من بعض⁸⁷ فضمنا إليه ما سميناه بالتتويج، ومرادنا به الحصول على ما يشبه حال لايس التاج على رأسه، حيث يجعله آخر ما يضعه عليه بعد أن يستكمل زينته وحليته، وكذلك هو حال الراوي الذي يجتهد أولا في تحصيل المادة القرائية حتى إذا حفظها وأتقن أدائها سعى إلى تتويج روايته بعرضها على إمام معتبر للحصول على تركبتها، ومهرها بخاتم من يميزه بها، ويقره عليها، ويفخر على الأقران بنسبة ما يأخذ به فيها إلى عرضه عليه، وذلك ما يذكر المؤرخون أنه تحقق لهذين الإمامين الجليلين لكن بغير الصفة المعتادة عند المحدثين فيما يسمونه بالتدبج، لأن موضوع رواية كل منهما عن صاحبه مختلف في صورته ونوعه.

فقد قرأ مالك على نافع وعرض عليه القراءة، وعده عياض في شيوخه الذين روى عنهم في "الموطأ" وغيره وروى عنه الحديث، لم يذكر له رواية معينة، وإنما قال: نافع القارئ ابن أبي نعيم، توفي قبله بعشر سنين، قرأ مالك عليه القرآن⁸⁸.

83 - ترتيب المدارك: 135-133/3.

84 - هو أبو عبد الله الحسن بن إبراهيم الهمداني الجوزقاني الحافظ (ت 543هـ) له كتاب الموضوعات.

85 - هو عبد الرحمن بن هرمز من شيوخ الإمامين مالك ونافع، توفي بالإسكندرية سنة 117هـ.

86 - تزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: 151/1.

87 - وإليه أشار الإمام السيوطي في ألفيته في علم الحديث بقوله:

فإن روى كل من القرنين عن صاحبه فهو مدبج حسن.

88 - ترتيب المدارك: 172/2.

كما نقل عن الحافظ أبي عمرو الداني أنه ذكر مالك بن أنس في طبقات القراء المتصدرين، وذكر روايته عن نافع⁸⁹.

ونقل الإمام أبو جعفر بن الباذش عن ابن عم مالك وابن أخته الأنف الذكر إسماعيل بن أبي أويس قال: قال لي مالك: قرأت على نافع ابن أبي نعيم⁹⁰.

أما الكيفية التي أخذ بها عنه مالك فلا نعلمها بالتفصيل، ولكننا نفهم من قوله: «قرأت على نافع» ما يعني طول الصحبة والملازمة، وهي أبلغ في الدلالة على هذا المعنى من قول الحافظ ابن الجزري في ترجمة: «أخذ القراءة عرضا عن نافع بن أبي نعيم»⁹¹.

وقد شارك مالك في شيخه نافع كثير من تلامذته، وذلك ناشئ عن طول تصدره بالحرم النبوي حتى أخذ عنه الآباء والأبناء والأحفاد، وكثرت أعدادهم خلال العرض عليه حتى كان الحصول على الدور من الصعوبة بمكان، وأكثر الآخذين عنه إنما كانوا يقرأون بحضرته، أو يسمعون القراءة من أفواه العارضين عليه في أثناء هذا العرض اليومي الذي لا يكاد ينقطع عبر عهود تصدره المديدة.

ولذلك يقال في تراجم بعض أصحابه: أخذ القراءة عنه عرضا وسماعا، وهذا هو النمط الرفيع، بينما يقال في ترجمة آخرين: عرض عليه، أو سمع منه حروف القراءة، وهي منزلة دون المنزلة الأولى.

ولقد حرص الذين طالت صحبتهم لنافع كقالون عيسى بن مينا الزرقني وأبي بكر عبد الحميد الأعشى وإسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري وإسماعيل بن أبي أويس الأصحبي على أن يجمعوا في القراءة عليه بين السماع والعرض، وفي مثل هذا يقول قالون فيما أخرجه أبو بكر بن الأنباري في "الإيضاح" بسنده إليه: «قرأت على نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ هذه القراءة غير مرة، وأخذتها عنه»⁹².

وفي لفظ عند ابن الجزري: «قرأت على نافع روايته غير مرة، وكتبها في كتابي»⁹³.

وروى الحافظ أبو عمر بن عبد البر بسنده عن ابن القاسم وابن وهب كلاهما عن مالك أنه قيل له: «أرأيت ما عرضنا عليك، أنقول فيه: حدثنا؟ قال: نعم، يقول الرجل إذا قرأ على الرجل: أقرأني فلان، وإنما قرأ عليه»⁹⁴.

وقال مالك أيضا حين سأل تلميذه وتلميذ نافع إسماعيل بن أبي أويس المدني عن صحة التحمل بذلك: ألسنت أنت قرأت على نافع، وتقول: أقرأني نافع؟⁹⁵.

89 - نفسه: 81/1 ونحوه في الديباج المذهب لابن فرحون: 29.

90 - الإقناع في القراءات السبع لأبي جعفر أحمد بن علي بن الباذش الغرناطي: 55/1، وانظر جمال القراء للسخاوي: 445/2.

91 - غاية النهاية: (35-36) ترجمة 2642.

92 - كتاب إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري (111/1).

93 - غاية النهاية (615/1).

94 - جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر بن عبد البر (178/2).

95 - نفس المصدر والصفحة.

فهذا كله إنما يدل على أن طريقة التحمل وكيفية الأخذ عن القراء إنما كانت في الغالب الأعم تتم عن طريق العرض بعد أن يكون الطالب قد سمع قراءة الشيخ منه، أو من غيره بمحضره فاستوعبها، وربما سمعا قراءته في بلده على من أتقنها، حتى إذا تمكن من الأهلية فيها، رحل إلى الشيخ ليعرضها عليه، وهذا هو الذي عبرنا عنه بالتتويج للرواية بعرض المحفوظ على إمام معتبر كنافع.

وقد ذكر عن أبي عمر الدوري وهو أول من جمع حفظا قراءات قراء الأمصار الخمسة مشهورها وشاذها، وكان مع ذلك ضرير البصر⁹⁶ أنه كان يعبر عن مبلغ حسرته على فوات ما فاتته من الرحلة إلى نافع بالمدينة لعرض قراءته عليه فيقول:

«قرأت على إسماعيل بن جعفر بقراءة أهل المدينة ختمة، وأدركت حياة نافع، ولو كان عندي عشرة دراهم لرحلت إليه»⁹⁷.

فماذا كان شأن مالك في القراءة على نافع مما اكتفى فيه بعضهم بقوله: عرض عليه؟.

الإمام مالك في كُتَاب نافع:

ربما يفاجئ القارئ الكريم بهذا العنوان، وقد تعمدناه قصدا لما سنذكره مما يدل عليه. إذ من المعلوم أن مالك بن أنس لم يرحل عن المدينة في تحصيل القراءة وعلوم الرواية إلى غيرها من الأمصار، وذلك لأن المدينة كانت منزل الوحي، ودار العلم والعلماء، وإليها تشد الرحال وتضرب أكباد الإبل من الآفاق، ومن ثم فقد ظلت بمنزلة الشمس الساطعة التي تستمد منها أطراف البلاد الإسلامية، ويعم شعاعها وأنوارها في كل مكان، وكانت عامة الأقطار والأمصار محتاجة إلى الاستمداد منها في كل ما يرجع إلى رواية العلوم الشرعية بأنواعها.

ولقد أتبع مالك وهو في ميعة⁹⁸ الصبا أن يجد نفسه في هذه البلدة النبوية وهي في ريعان نشاطها القراني والعلمي بعد أن انتهت بها الأحداث إلى انتقال دار الخلافة عنها إلى الشام، فتفرغ أهلها لطلب العلم في حلقات العلماء بالروضة الشريفة وفي رحاب المسجد النبوي، كما أتجه أبناؤها إلى قراءة القرآن الكريم وأنواع علومه بدءا بمرحلة الكتاب التي عمت سائر الأحياء، وانتهاء إلى حلقات الإقراء والعرض على القراء بالمسجد والحرم النبوي وغيره من المساجد الأخرى التي كانت بالمدينة لهذا العهد.

وقد عرفت أحياء المدينة في المائة الأولى من الهجرة حركة نشيطة في إقامة الكتاتيب لتعليم الناشئة، وذكر ياقوت الحموي في معجمه نقلا عن الحافظ ابن عساكر أن المدينة كان فيها زمن أبي بكر الصديق مكتب لتعليم القراءة والكتابة⁹⁹.

⁹⁶ - انظر كتاب معرفة القراء الكبار للذهبي (157/1-158) وغاية النهاية (255/1-257).

⁹⁷ - معرفة القراء الكبار (158/1).

⁹⁸ - يقال: «ميعة الحضر والشباب والسكر والنهار وجري الفرس: أوله وأنشطه. وقيل: ميعة كل شيء: معظمه». عن "لسان العرب"، مادة: "مبع"، المجلسة.

⁹⁹ - انظر الفوائد الجميلة على الآيات الجليلية للشوشاري: 285-286.

وتحدث غير واحد من المؤرخين، عن كُتّاب عابد الخزاعي في خلافة سيدنا عمر، وأن عمر رتب له أوقات التعليم، وأمره بتسريح الصبيان يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، فبقي ذلك سنة عمرية جرى عليها العمل إلى اليوم. وسمى أبو عمر بن شبة النمري نحو عشرة من الكتاتيب كانت موزعة في جهات المدينة المنورة في عهد خلافة الراشدين¹⁰⁰. وفي صحيح الآثار ما يدل أن هذه الكتاتيب كانت تدر على أصحابها دخلا معتبرا احتاج الناس معه إلى سؤال الفقهاء عن حكمه الشرعي تورعا منهم عن أخذ ما يشبه أن يكون أجرا على القرآن العظيم، فكهروا الإقدام عليه، وفي الصحيح من حديث أم سليم الأنصارية - رضي الله عنها- أنها بعثت إلى معلم الكُتّاب: أن ابعث إلي غلمانا ينفشون صوفا، ولا تبعث إلي حرا¹⁰¹، أي لا تبعث معهم بمن يأنف أهله من مثل هذه الخدمات.

ولقد رفع إلى مالك نفسه - كما روى عنه ابن وهب الفقيه سؤال من صاحب كتاب أراد أن يشاطر على التعليم بأجر معلوم، فقال مالك: «أذهب فشارط، فانصرف الرجل، فقال له بعض جلسائه: يا أبا عبد الله، تأمره أن يشارط على التعليم؟ فقال له مالك: نعم فمن يحفظ لنا صبياننا ويؤدبهم لنا؟ لولا المعلمون، أي شيء كنا نكون؟»¹⁰². فدلّت هذه الآثار على انتشار الكتاتيب ووفرتها بالمدينة في الصدر الأول.

ولقد كان مالك في هذه الإجابة يعالج وضع اجتماعيا أمسى قائما، وهو وضع طبقة من المؤدبين في هذه الكتاتيب، أي: المعلمين للقرآن في المؤسسات الخاصة التي ليست لها إستفادة من بيت المال، وقد أمسى عددهم كبيرا بالمدينة لاسيما في المائة الثانية من الهجرة في زمن طفولة مالك بن أنس، وحفظه لكتاب الله في مرحلة الكتاب.

ويظهر من بعض الروايات أن الإمام نافع بن أبي نعيم نفسه كان في بداية أمره أحد هؤلاء المؤدبين، كما أن الإمام مالك بن أنس كان في تلك المرحلة أحد تلاميذه في الكتاب القرآني بالمدينة المنورة.

فقد ذكروا أن نافعا كان له كتاب في الوادي العقيق بالمدينة، وإن مالكا كان يقرأ فيه عليه، وذلك حين انتقلت بمالك أسرته من المروة¹⁰³ إلى العقيق¹⁰⁴ بقرب المدينة، فعاش مع أخ له من تجارة البز، حتى وجهته أمه إلى الكتاب، فحفظ القرآن على قارئ المدينة أول السبعة¹⁰⁵ القراء نافع بن أبي نعيم.

100 - تاريخ المدينة المنورة لعمر بن شبة النمري: 231/1-245-249-251-253-262.

101 - صحيح البخاري: كتاب الديات : 193/4.

102 - إيضاح الأسرار والبدائع لابن الجراد في شرح الدرر اللوامع لأبي الحسن بن بري (مخطوط).

103 - لعل المراد ذو المروة وهو عمل من أعمال المدينة، قرى واسعة لقبيلة جهين بينها وبين المدينة ثمانية برد. انظر "معجم ما استعجم للكثيري" (4/1218).

104 - هو واد فسيح بقرب المدينة المنورة في طريق مكة وفيه اليوم مقر الجامعة الإسلامية بالمدينة، وقد وردت فيه آثار كثيرة، انظر "معجم ما استعجم": 952/3-953.

105 - انظر محاضرة الأستاذ إبراهيم صالح الحسيني من علماء نيجيريا المنشورة ضمن محاضرات ندوة الإمام مالك: (1/126).

فمالك إذن لم يكن قد عرض القراءة عليه فقط بعد أن استكمل أدواته فيها، وإنما قرأ عليه أولا قراءة التلقين، وذلك يقتضي أن العلاقة بينه وبينه في التلمذة والمشيخة لم تكن بسيطة تقتضي صحبة عام، أو أقل، أو أكثر مما كان يتطلبه العرض في مجرى العادة، بل كانت أطول من ذلك وأعرق في التأثير، وذلك من شأنه أن يكون له -كما سوف سنراه- موضعه من التجلة والتقدير عند الإمام مالك حينما يعسي إمام أهل بلده في السنة ورواية الفقه والآثار، وتضرب إليه أكباد الإبل من الأقطار والأمصار.

ولقد تقدم نافع القارئ مالكا الإمام بالسن بأزيد من عشرين عاما، كما تقدمه أيضا إلى ارتياد حلقات العلم ومجالس الإقراء، ولكنهما مع ذلك اشتركا في الأخذ عن طبقة من المشايخ في الحرم النبوي، ومن أهمهم عبد الرحمن بن هرمز الأعرج صاحب أبي هريرة، وأبو جعفر بن القعقاع قارئ المدينة، ونافع مولى عبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ويزيد بن رومان، وربيع بن أبي عبد الرحمن وسواهم.

ولقد أخرج أبو بكر بن الأنباري في كتاب "الإيضاح" بسنده عن الأصمعي قال: «حدثنا نافع قال: جلست إلى نافع مولى عبد الله بن عمر ومالك من الصبيان، قال: وقرأ نافع ﴿لَتُخِفَتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾¹⁰⁶، يعني أنه قرأها على غير القراءة المشهورة بالمدينة عن أبي جعفر ونافع.

وإنما يعيننا من هذا الأثر ما يدل عليه من طول الصلة الزمانية والمكانية ما بين نافع القارئ ومالك الفقيه، وهي صلة امتدت أزيد من سبعين سنة، كما أنها جديرة بأن تعمل إلى جانب التلمذة والتدبير في الرواية، والاشتراك في الشيوخ أولا، ثم في مشيخة التصدر بالمسجد النبوي ثانيا، على توثيق الوشائج الروحية والروابط العلمية، وتلاقي المصالح المادية والمعنوية أيضا بفعل الجوار والاحتكاك، والتواصل الدائم، والعمل المشترك في التدريس، واستقبال طلبة القراءة وعلوم الرواية الوافدين من الآفاق لعقود مديدة من الأعوام، والاحترام المتبادل بين الإمامين، واعتراف كل منهما بمكان صاحبه وعظيم مرتبته.

منزلة نافع عند مالك:

لقد كان لنافع عند مالك المنزلة التي لا تطال، إذ كان لا يدع فرصة تعن له إلا اعترف له بالاستاذية في فنه، ونوه فيها بإمامته في القراءة لأهل بلده، واعتبر قراءته سنة من السنن عندهم لا يزاحم فيها.

وقد ذكروا من كمال حذق الإمام مالك في علوم الرواية في بلده أنه: «ما جلس إلى أحد من شيوخه في علم من العلوم، إلا عاد شيخه فجلس إليه فيه، إلا نافع بن أبي نعيم»¹⁰⁸.

¹⁰⁶ - يعني أنه قرأها ﴿لَتُخِفَتَ﴾ بفتح التاء وتخفيفها وكسر الحاء في الآية رقم 76 من سورة الكهف، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو بن العلاء من السبعة، ويعقوب الحضرمي من العشرة. انظر "التيسير في القراءة السبع" لأبي عمرو الداني (ص145) والنشر في القراءات العشر لابن الجزري (314/2).

¹⁰⁷ - إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر محمد بن بشار الأنباري (111/1) ونحوه في جامع البيان للداني (ص45).

¹⁰⁸ - نقله السيوطي عن الدولقي، انظر كتاب ندوة الإمام مالك (127/1).

فنافع إذن لم يكن في سمو مقامه في علم القراءة ليجتاح إلى مالك في شيء مما يرجع إلى علومها، ومع هذه الشهادة له بامتلاك الغاية فيها، فقد جاءت الرواية عنه بأنه كان يسأله فيما يرجع إلى الجانب الفقهي حينما يتعلق به كما كان يسأل كبراء شيوخه من فقهاء المدينة، وكما كان يستشير في أموره.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو عمرو الداني بسنده عن عبد الله بن وهب الفقيه عن نافع بن أبي نعيم قال: «سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن¹⁰⁹ عن شكل القرآن في المصحف فقال: لا بأس به»¹¹⁰.

قال ابن وهب: «وحدثني الليث بن سعد قال: لا أرى بأساً أن ينقط¹¹¹ المصحف بالعربية¹¹². قال ابن وهب: وقال لي مالك: أما هذه المصاحف الصغار¹¹³ فلا أرى بأساً، وأما الأمهات فلا»¹¹⁴.

ولقد كان السبب الباعث على إثارة هذا السؤال هو انتشار هذه المصاحف الصغار، أو المصاحف الشخصية التي كان طلبة القراءات يكتبونها لأنفسهم، ويريدون أن يضبطوها بالشكل التام، إما احتياطاً من اللحن، وإما لتحديد وجوه الروايات وضبط كيفية القراءة فيما يقرأ على أكثر من وجه لاسيما في قراءة نافع.

ومن أبرز أمثلة ذلك ما جاء عن العمل الذي قام به بالمدينة أبو محمد الغازي بن قيس القرطبي الأندلسي (ت199هـ) الذي ألف كتاباً وصف فيه مذهب أهل المدينة في رسم المصحف وطريقتهم في شكله وسماه "هجاء السنة" وما جاء عنه من أنه قال: «عرضت مصحفي هذا بمصحف نافع ثلاث عشرة مرة، أو أربع عشرة مرة»¹¹⁵.

فمن جراء هذه المصاحف التعليمية خيف أن يمتد هذا الصنيع من جهة الرواة للقراءة إلى أن يضعوا مثل هذا الشكل في مصاحف الأمصار التي هي الأصول التي أخذت عن المصحف الإمام على عهد الخليفة ذي النورين عثمان رضي الله عنه، ولم يكن الأئمة من العلماء يرون في ذلك توسعة لأحد، بل قال أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ): «اتباع حروف المصحف عندنا كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعدها»¹¹⁶. وقال أشهب بن عبد العزيز: سئل مالك رحمه الله - هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على

¹⁰⁹ - هو المعروف بريعة الرأي من أعلام شيوخ مالك وعلماء المدينة.

¹¹⁰ - المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني (ص13) وكتاب النقط له (ص125).

¹¹¹ - يعني بالنقط: الشكل. وهو المعروف بنقط الإعراب، أو الشكل المدور ويختص بأواخر الكلم.

¹¹² - يعني بما تقتضيه علامات الإعراب حسب ما مصطلحات قواعد النحو.

¹¹³ - يعني المستعملة للتعليم.

¹¹⁴ - المحكم (ص13).

¹¹⁵ - طبقات القراء لأبي عمرو الداني، ونقله عنه الإمام الذهبي في "السير" (323/322/9) ترجمة رقم104، و"التزويل في رسم المصاحف" لأبي داود (568/3-569) و"غاية النهاية" (2/2) ترجمة3534. وترتيب المدارك (114/3).

¹¹⁶ - كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد (ص217) ونقله الزركشي في "البرهان" (380/1).

الكتبة الأولى»¹¹⁷. قال الإمام السخاوي: «والذي ذهب إليه مالك هو الحق، إذ فيه بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى بعد الأخرى، ولا شك أن هذا هو الأخرى، إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما في الطبقة الأولى»¹¹⁸. قال الإمام الداني: «ولا يخالف لمالك من علماء هذه الأمة»¹¹⁹.

كان مالك كشيخه نافع شديد الصلابة في الأمور التوقيفية والسنن العملية التي من شأنها أن يأخذها الخلف عن السلف سالمة مسلمة لا مجال لمناقشتها، ولا مدخل للاجتهاد وإبداء الرأي فيها.

أخرج الإمام أبو عمرو الداني بسنده في "جامع البيان" عن نصر بن علي قال: «حدثنا الأصمعي قال: سمعت نافعا يقرأ **﴿يقصر الحق﴾**¹²⁰ فقلت لنافع: إن أبا عمرو¹²¹ يقرأ **﴿يقصر﴾**¹²²، وقال: القضاء مع الفصل¹²³!، فقال: وي، يا أهل العراق، تقيسون في القرآن!»¹²⁴. هكذا أنكر نافع أن يكون ما يذكر عند أهل اللغة لتوجيه القراءة من جهتها سيلا إلى إثباتها، أو ردها، أو تفضيل غيرها عليها حسما لهذا الباب جملة وتفصيلا، لأن عماده الرواية المتواترة فلا مجال للقياس والرأي فيها.

وعلى هذا المتوال كان جواب مالك أيضا فيما أسنده أبو عمرو الداني عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أنه قال لمالك بن أنس: «لم قرأتكم في [ص]: **﴿ولي نعمة ولحدة﴾**¹²⁵ موقوفة الياء»¹²⁶، وقرأتكم في **﴿قل يا أيها الكافرون﴾** **﴿ولي دين﴾** منتصبة الياء؟ فقال مالك: يا أهل الكوفة لم يبق لكم من العلم إلا كيف ولم؟؟ القراءة سنة تؤخذ من أفواه الرجال، فكن متبعا، ولا تكن مبتدعا»¹²⁷.

وأخرج الداني أيضا بسنده قال: «قيل لمالك بن أنس: كيف قرأتكم في سورة سليمان¹²⁸ **﴿مَالِكٍ لَا أَرَى لُغْمَةً﴾** مرسله الياء، وقرأتكم في سورة يس **﴿وَمَالِكٍ لَا أَعْبُدُ﴾**¹²⁹ منتصبة

117 - المقنع لأبي عمرو الداني (ص10) والحكم له (ص11) وانظر كتاب "المتحف في رسم المصحف" للدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح (ص93).

118 - تاريخ المصحف الشريف للشيخ عبد الفتاح القاضي (ص53).

119 - المتحف في رسم المصحف (ص93).

120 - الأنعام: 57.

121 - يعني ابن العلاء إمام أهل البصرة في القراءة والأدب واللغة.

122 - يعني قرأها **﴿يقصر الحق﴾** يسكون القاف وضاد مكسورة من القضاء، وبه قرأ أبو عمرو البصري وحزرة والكساني وابن عامر الشامي، وقرأ نافع وابن كثير وعاصم **﴿يقصر﴾** بضم القاف والصاد من القصص. انظر السبعة لابن مجاهد (ص259) والتيسير لأبي عمرو الداني (ص103).

123 - يعني مناسبة قراءة يقصر بالضاد لسياق الآية لقوله فيها: **﴿وهو خير الفاصلين﴾**.

124 - جامع البيان (ص42).

125 - ص: 23.

126 - يعني ساكنة الياء، وهو اصطلاح يعبر به عن السكون في مقابل الحركة.

127 - جامع البيان (ص42).

128 - يعني الآية 20 من سورة النمل.

129 - يس: 22.

الياء؟ قال: فذكر مالك كلاما ثم قال: لا تدخل على كلام ربنا لم وكيف؟؟ وإنما هو سماع وتلقين أصاغر عن أكابر، والسلام»¹³⁰

المنهج إذن في التعامل مع حروف القرآن في الأخذ والتلاوة كما هو في كتابة المصاحف ورسمها على الوجوه الثابتة فيها بالتلقي عن السلف، هو منهج متحد عند كلا الإمامين، لا مكان فيه للرأي الشخصي، أو التزل على مقتضى القياس اللغوي، فلا هوادة فيه مع المخالف والمجادل كأننا من كان من الناس.

ولقد كان مالك -رحمه الله- مرهف الإحساس نحو مثل هذه التساؤلات، مما قد يشتم منه الخروج على اتباع المرسوم في مصحف أهل المدينة والمأخوذ به في قراءتهم، حتى وإن كان ذلك مما قرأ به أهل الأمصار الأخرى.

فقد روى الإمام أحمد بن عبد الرحيم البرقي قال: «حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا عمرو بن حسان أن أبا خليل¹³¹ قال لمالك: يا أبا عبد الله، أهل دمشق يقرأون (إبراهيم)¹³² قال: أهل دمشق بأكل البطيخ أعلم منهم بالقراءة. فقال له أبو خليل: إنهم يدعون قراءة عثمان! قال مالك: فهذا مصحف عثمان عندي، ودعا به ففتح، فإذا فيه (إبراهيم) كما قال أهل دمشق»¹³³

قال الإمام أبو عبد الله الذهبي: «رسم المصحف يحتمل القراءتين»¹³⁴، وقراءة الجمهور أفصح وأولى»¹³⁵

قلت: أما كونها أفصح فقد يكون كذلك، وأما كونها أولى فغير مستقيم، لأنه يؤدي حتما إلى توهين القراءة الأخرى، وهي مثلها من جهة تواتر الرواية بها عن ابن عامر وقراء الشام¹³⁶، ولا سيما أن مصحف أهل المدينة موافق لها أو محتمل، ومصحف أهل الشام أيضا

¹³⁰ - جامع البيان(ص42).

¹³¹ - أبو خليل: هو عتبة بن حماد بن خليل أبو خليل الحكمي الدمشقي إمام جامعها، أخذ الحديث والفقه عن الإمام أبي عمرو الأزاعي، وروى عن مالك الموطأ وغيره، وهو أحد التسعة الذين ذكر أبو حيان الأندلسي أنهم مشهورون عند أهل النقل في الرواية عن نافع، وقد ذكر ابن مجاهد في كتاب السبعة ما قرأ به على نافع، وقال ابن الجزري: روى القراءة عن نافع، وله عنه نسخة، روى القراءة عنه هشام بن عمار وأحمد بن عبد العزيز الصوري وعبد الرحمن بن أحمد بن عبده. انظر الخلاصة للخزرجي (ص257)، والسبعة لابن مجاهد(ص63-64-98-99-153-191-327-467)، ورعاية النهاية(498/1)ترجمة رقم2074.

¹³² - يعني بألف بعد الهاء في موضع الياء من اسم إبراهيم.

¹³³ - سير أعلام النبلاء للذهبي(104/8-105).

¹³⁴ - يعني لأنه كتب بدون نقط ولا ألف ولا ياء بعد الهاء في اسم "إبرهم"؟

¹³⁵ - سير أعلام النبلاء(104/8-105) وانظر وقوف أبي عبيد عليه في المصاحف في البقرة بغير ياء. فضائل القرآن(ص168).

¹³⁶ - ذكر ابن الجزري في "النشر"(221/2-222) اختلاف الرواية فيها عن ابن عامر في ثلاثة وثلاثين موضعا من القرآن وذكرها، وذكر من نقل الخلاف فيها عن هشام وابن ذكوان وطرقهما ثم قال: ووجه خصوصية هذه المواضع أنها كتبت في المصاحف الشامية بخلاف الياء منها خاصة، وكذلك رأيتها في المصحف المدني، وكتبت في بعضها في سورة البقرة خاصة، وهي لغة فاشية للعرب، وفي لغات أخرى قرئ ببعضها، وبها قرأ عاصم الجحدري وغيره، وروى عباس بن الوليد وغيره عن ابن عامر الألف في جميع القرآن...».

كما في هذا الخبر، والرواية عن ابن عامر فيها بما تقدم مما يقرأ به من طريق التيسير والشاطبية والنشر والطيبة وغيرها إلى اليوم، فلا وجه للاعتراض عليها من جهة الثبوت أبداً، وإنما الاعتراض عند مالك متوجه على الموازنة بين القراءات بغرض الانتصار للواحدة على الأخرى منهما، وقد قدمنا أن الإمام مالكا كان قد ورث عن أهل بيته هذا الاهتمام بالمصحف الإمام وما رسم فيه من حروف، وأن جده مالك بن أبي عامر كان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان المصاحف¹³⁷. وقدمنا من رواية عبد الله بن وهب وابن القاسم أن مالكا أخرج إليهم مصحفاً لجده زعم أنه كتبه في أيام عثمان حين كتب عثمان المصاحف، فكان مما فيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ بالواو¹³⁸، وهي قراءة صحيحة متواترة لكنها مخالفة لقراءة أهل المدينة. وفي "سير أعلام النبلاء" عن داود بن رشيد قال: «حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت مالكا عن تفضيض المصاحف¹³⁹، فأخرج إلينا مصحفاً فقال: حدثني أبي عن جدي أنهم جمعوا القرآن على عهد عثمان، وأنهم فضضوا المصاحف على هذا أو نحوه»¹⁴⁰. وفي "الحكم" في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني بسنده إلى عبد الله بن عبد الحكم قال: «سمعت مالكا وسئل عن العشور¹⁴¹ التي تكون في المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال: تعشير المصحف بالخبر لا بأس به. قال الداني: وهذا يدل على الترخيص في ذلك والسعة فيه»¹⁴².

وأخرج الداني أيضاً بسنده في "الحكم" عن ابن عبد الحكم قال: «قال ابن وهب وابن القاسم: سمعنا مالكا وسئل عن العشور¹⁴³ التي تكون في المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال: "تعشير المصحف بالخبر لا بأس به" قال الداني: وهذا يدل على الترخيص في ذلك والسعة فيه»¹⁴⁴.

وأخرج الداني أيضاً بسنده في الحكم عن ابن عبد الحكم قال: «قال ابن وهب وابن القاسم: سمعنا مالكا سئل عن المصاحف تكتب فيها فواتح السور، في كل سورة ما فيها من آية، فقال: إني أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يكتب فيها شيء أو يشكل، فأما ما يتعلم فيه الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأساً، قال عبد الله بن الحكم: وأخرج إلينا مالك مصحفاً محلى بالفضة، ورأينا فواتحه من حبر على عمل السلسلة في طول السطر، قال: ورأيت معجوماً الآي بالخبر، وذكر أنه لجده، وأنه كتبه إذ كتب عثمان المصاحف»¹⁴⁵.

137 - ترتيب المدارك (113/1).

138 - أحكام القرآن لابن العربي: القسم الرابع (1941).

139 - يعني تخليتها بالفضة كما سيأتي وانظر كراهية ذلك مروياً عن ابن عباس في فضائل القرآن لأبي عبيد (ص242).

140 - سير أعلام النبلاء للذهبي (110/8).

141 - يعني وضع علامة بعد تمام كل عشر آيات، لأن التعليم كان يجري على ذلك كما في الخبر عن ابن مسعود وغيره.

142 - الحكم (ص15).

143 - يعني وضع علامة بعد تمام كل عشر آيات، لأن التعليم كان يجري على ذلك كما في الخبر عن ابن مسعود وغيره.

144 - الحكم: 15.

145 - نفسه: 17.

وهكذا كان مالك على صلة وثيقة بميدان الإقراء وقضايا القراء، فكان يستفتى في مثل هذه الأمور المتصلة بالمصاحف، ومقتضيات التطور التي أملتتها الضرورة سعيا إلى تيسير العملية التعليمية، وإسعافا من جهة أخرى للطلبة المتعلمين الذين يرحلون من الآفاق القاصية إلى المدينة ليأخذوا عن إمامها في القراءة، ويحرصون على أن يضبطوا اختياراته، لاسيما في فواعد الأداء، ومسائل الخلاف ومعرفة رؤوس الآي على وفاق العدد المدني، ويسعون إلى أن يكون ذلك مدونا عندهم في نسخ صحيحة معروضة على الشيخ، مزكاة بالدراسة والمقارنة، فكانوا يثيرون هذه القضايا، ويسألون إمام دار الهجرة عن أحكامها وما يسوغ فعله وما ليس يسوغ، وكان يعمل على رفع هذه الإشكالات، وينظر في عمل أهل المدينة الذي هو أحد أصول مذهبه الفقهي¹⁴⁶، مستعينا على ذلك بالوثائق المكتوبة، ومنها مصحف جده الذي رأيناه يستعين به في غير ما رواية ويبني فتواه عليه، ومن ثم فلا نستبعد أن يكون مصحفه الشخصي منتسقا من مصحف جده هذا الذي نراه يعتمد في التوثيق والإفتاء، لاسيما ما عرف عن مالك من طول الملازمة لمصحفه، فقد قال صاحبه وقرينه الليث بن سعد: «قلت لأخت مالك: ما كان شغل مالك في بيته؟ قالت: المصحف، التلاوة»¹⁴⁷.

القاسم المشترك بينه وبين نافع في العناية بالمصحف:

ها نحن إذن إلى جانب هذا التدبج في الرواية ما بين مالك ونافع، نقف على هذا القاسم المشترك بينهما في العناية والتهمم بأمر المصحف المدني والمرسوم فيه، وما اقتضاه العمل بالمدينة من الحاجة إلى تطوير الكتابة وضبط النسخ المروية لقراءات الأئمة على ما تقتضيه مسائل الخلاف باستعمال الألوان الإصطلاحية الزائدة على السواد الأصلي الذي كتب به المصحف العثماني، والذي رأينا شدة حرص الإمام مالك على الحفاظ عليه فيما يخص المصاحف «الأهمات» والتسامح فيه في غيرها من المصاحف التي يتعلم فيها الصغار أخذًا منه بجانب المرونة ورعاية المصلحة، ولا شك أن أكثر المثبرين لهذه القضايا عند مالك هم من تلامذة الإمام نافع ورواد حلقة.

أما كون الإمام نافع بهذه المثابة والمترلة السامية في العناية بأمر المصحف المدني وزيادة التهمم به، فهو من لوازم كون الإمامة في معرفة المرسوم في إحدى مقومات الإمامة في علوم القراءة، وذلك باعتبار موافقة القراءة لما رسم في مصحف الإمام أحد الأركان الثلاثة التي هي مع التواتر في الأداء وموافقة وجه سائغ من وجوه العربية، من جملة الشروط والمعايير التي اعتمدها أئمة هذا الشأن في قبول القراءات والقطع بقرآنيتهما كما أشار إليها المحقق ابن الجزري في طيبة النشر بقوله:

¹⁴⁶ - انظر كتاب «صحة أصول مذهب أهل المدينة» تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية: 42، 55، 61، 62، 66 وكتاب «إيصال السالك في أصول الإمام مالك» لخميد بن يحيى الولاتي: 45 وكتاب «عمل أهل المدينة» لعطية سالم: 11، 18.
¹⁴⁷ - سير أعلام النبلاء: 111/8 وكتاب «مناقب الإمام مالك» للعلامة عيسى بن مسعود الزواوي: المدونة الكبرى: 94/1.

فكل ما وافق وجهة نحو
وكان للرسم احتمالا يحوي
وصح إسنادا هو القرآن
فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت
شذوذه لو أنه في السبعة¹⁴⁸

وقد كان نافع سيد هذه الحلبة وقيدومها بشهادة العلماء، وعنه نقل إلينا توثيق الرسم أخذنا عن المصحف الإمام، وهو أول القراء السبعة ذكرا في أول كتاب جمعت فيه القراءات السبع وهو كتاب السبعة للإمام أبي بكر محمد بن موسى ابن مجاهد البغدادي (ت324هـ)، وقد علل ابن مجاهد لاستهلاله لكتابه به فقال: «فأول من ابتداء بذكره من أئمة الأمصار من قام بالقراءة بمدينة رسول الله ﷺ وإنما بدأت بذكر أهل المدينة لأنها مهاجر رسول الله ﷺ ومعدن الأكابر من صحابته، وبما حفظ عنه الآخر من أمره، فكان الإمام الذي قام بالقراءة بمدينة رسول الله ﷺ بعد التابعين: أبو عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم»¹⁴⁹.
وبنافع ابتداء أبو عمرو الداني في مؤلفاته كـ"التيسير" و"جامع البيان" و"مفردات القراء" وغيرها، وقال في الأرجوزة المنبهة:

والآن فلنبدا بذكر السبعة
والفضل والنسك وأهل الصدق
وكل من عنه روي كبير
فالسبعة القراء منهم نافع
إمام دار المجتبي محمد
قرأ بالمدار على الأكابر
يزيد¹⁵⁰ وابن هرمز¹⁵¹ وشيبة¹⁵²
ممن قرا على أبي هريرة
من جلة الصحابة الكرام
أئمة القرآن أهل الرفعة
والعلم والفهم وأهل الحذق
وعلمهم وفضلهم شهر
في العلم بالقرآن لا ينازع
أكرم به من موطن ومشهد
من تابع الصحابة المشاهير
ومثلهم من علماء طيبة
وسمع من عمر وغيره¹⁵³
المرتضين السادة الأعلام

وإنما ابتدئ بنافع كما رأينا لمقامه وموضعه من هذه الوراثة النبوية لما جرى به العمل في ميدانه، كما اعتمد لمثل ذلك في ميدانه تلميذه الإمام مالك فاشتهر كل منهما فيه بإمام دار الهجرة، أي: قدوة أهلها في عصره والمأخوذ بطريقته فيها ومذهبه.
ولقد جرى مجرى المثل في المدينة النبوية قول أهلها: «لا يفتي ومالك بالمدينة» كما شهد العلماء الذين وردوا على المدينة لنافع بمثل ذلك في ميدانه، فجاء عن الليث بن سعد أنه قال:

¹⁴⁸ - طيبة النشر: 32 الأبيات: 14، 16.

¹⁴⁹ - كتاب السبعة في القراءات: 53.

¹⁵⁰ - هو يزيد بن القعقاع أبو جعفر المدني ثامن القراء العشرة، توفي سنة 130 هـ غاية النهاية: 382/2 - 384.

¹⁵¹ - هو عبد الرحمن بن هرمز المدني الأعرج توفي بالإسكندرية سنة 117 هـ غاية النهاية: 381/1.

¹⁵² - هو بن نصاح المدني كان قارئ أهل المدينة بعد أبي جعفر، توفي سنة 130 هـ غاية النهاية: 329/1 - 330.

¹⁵³ - الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات للداني: ص 115، 116 الأبيات من: 206 - 214.

«حججت سنة عشر -وفي رواية سنة ثلاث عشرة- ومائة، وإمام الناس بالمدينة في القراءة نافع بن أبي نعيم»¹⁵⁴.

وعن أبي خالد الدمشقي أنه «سمع الليث بن سعد يحدث أنه قدم المدينة سنة عشر ومائة، فوجد نافعاً إمام الناس في القراءة لا ينزع، قال المسيبي¹⁵⁵ ويعني: وشيبة يومئذ حي»¹⁵⁶. وقال أبو عبيد (ت224هـ): «وإلى نافع صارت قراءة أهل المدينة، وبها تمسكوا إلى اليوم»¹⁵⁷.

وعن الأصمعي قال: «قال فلان: أدركت المدينة سنة مائة ونافع رئيس القراء بها، وعاش عمراً طويلاً»¹⁵⁸.

ومعنى هذا أن الإمام نافعاً قد صار إمام أهل المدينة في القراءة في خلافة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ) وعاش بعد هذا سبعين عاماً إلى وفاته في خلافة موسى الهادي من العباسيين سنة (169هـ).

فمن هنا يكون قد أُمسى خلال هذه المدة التي تزيد على سبعة عقود من الزمان مشد الرحال ومهطع الآمال في كل ما يرجع إلى توثيق القراءة المدنية ورواية ما صح عن أهلها في رسم المصحف الإمام، بل كان عمدة أهل الآفاق في تحرير ذلك وضبطه والدراسة المقارنة له اعتماداً على السماع منه والتصحيح على مصحفه كما تقدم لنا في عرض صاحبه الغازي بن قيس الأندلسي وتصحيح مصحفه على مصحفه.

ولقد كان وجود نافع بالمسجد النبوي في نفس الحقبة الطويلة التي كان فيها الإمام مالك متصدراً للتدريس بالموضع نفسه، مما أتاح الفرصة لطلبة العلم أن يأخذوا عن الإمامين معاً، الأمر الذي تأتي معه لكثير من رواة مذهب مالك أن يكونوا في الوقت ذاته من حملة الرواية عن نافع، وأن يجمع بعضهم بين رواية الموطأ عن مالك ورواية القراءة عن نافع كما رأينا عند الغازي بن قيس الأندلسي.

ولقد كانت حلقة مالك في الفقه والحديث لا تبعد كثيراً عن حلقة نافع في عرض القراءة عليه، مما يدل على مزيد من الألفة وطول الصحبة والاشتراك الضمني في تخريج هذه الطبقات من رواة القراءة والفقه لعقود من الزمان، الأمر الذي كان يتيح للطلبة سهولة الانتقال من هذه الحلقة إلى تلك، إما بعد استكمال الرواية، وإما جمعاً بين الأمرين في نسق واحد.

وهذا عبد الله بن نافع بن ثابت الزبيري أحد كبار الرواة عن مالك بن أنس فيما بعد، إذ صحبه أربعين سنة¹⁵⁹، نقل عياض عنه في "ترتيب المدارك" أنه قال: «أول ما عرفت به مالك

¹⁵⁴ - السبعة في القراءات لابن مجاهد: 62.

¹⁵⁵ - هو إسحاق بن محمد المسيبي المخزومي أحد الرواة الأربعة في الطرق العشر الصغرى عن نافع، غاية النهاية: 157/1.

¹⁵⁶ - السبعة في القراءات: 62.

¹⁵⁷ - نقله ابن الجزري في غاية النهاية: 331/2 ترجمة رقم 3718.

¹⁵⁸ - السبعة: 62-63.

¹⁵⁹ - انظر ترتيب المدارك: 145/3-147 «وشجرة النور الزكية» لابن مخلوق: 56.

بن أنس، أي كنت أقرأ يوما على نافع بن أبي نعيم بعد الصبح فرفعت صوتي فزجرتي، وقال: أو ما ترى مالكا؟ وهو أول ما عرفت به مالكا»¹⁶⁰.

ولعله بسبب هذا القرب في المكان والتوافق في الزمان، كان هذا الاهتمام في مجالس مالك بقضايا القراءة ورسوم المصحف، ولذلك لم يكونوا يعدلون بنافع أحدا من أئمة القراء معرفة بهذا الشأن، ولذلك أيضا اعتمده الأئمة بعدهم في تحرير رسوم المصحف الإمام وما جاء عن السلف في ضبطه لهذه المزايا والخصوصية التي توافرت له من حيث الزمان والمكان والمصادر والوثائق الخطية العتيقة، وحتى في مسائل الخلاف في المرسوم فقد رأى علماء هذا الشأن تقديم ما صح عنه على ما نقله غيره ممن لم تكن له تلك المزايا والخصوصيات، وإلى بعض ذلك أشار الإمام أبو القاسم الشاطبي في «عقيلة الأتارب» في قوله مشيرا إلى ما جاء من الخلاف في مسائل الرسم بين نافع المدني وبين أبي عبيد القاسم بن سلام:

وبين نافعهم في رسمهم وأبي
عبيد الخلف في بعض الذي أثر¹⁶¹
ولا تعارض مع حسن الظنون فطب
صدرا رحيما بما عن كلهم صدرا

قال الإمام أبو الحسن السخاوي في شرحه للبيتين في كتاب "الوسيلة": «اعلم أن رسم المصاحف إنما حصل منه ما حصل بالنقل عن جماعة، نظر بعضهم مواضع فأخبر بها، ونظر آخرون غير تلك المواضع فأخبروا بها، واتفقوا في مواضع، فإذا قلنا في هذا الكتاب: رواه نافع فليس ذلك لأن غيره قد روى خلاف ذلك، وإنما نعني به أن ذلك من القليل الذي رواه نافع، وكذلك إذا قلنا: في الإمام كذا، وإنما نعني به ما رواه أبو عبيد عن ذلك المصحف الذي استخرج له. ثم إن أبا عبيد قد خالف نافعا في مواضع يسيرة، فربما ظن ظان أن ذلك تعارض، وإنما يتعارض النقلان لو كان المصحف واحدا» «فإن قيل: فنافع يروي عن مصحف المدينة، وأبو عبيد عن مصحف عثمان، وهو الذي كان عنده بالمدينة أيضا، فكيف يقع في ذلك اختلاف؟»

قلت: اختلاف هذين الإمامين مع ما هما عليه من العدالة والإتقان والضبط، يدل على أن المصحف الذي رآه أحدهما غير الذي ينقل عنه الآخر. وما المانع أن يكون عثمان — رحمه الله — اتخذ لنفسه مصحفا وجعل لأهل المدينة مصحفا، وهذا هو الظاهر، لأنه لم يكن ليجعل للناس إماما يقتدون به، ثم يختص هو به دونهم قال: وإنما نفى التعارض، لأن المصاحف عدة، وكل حكى ما رآه»¹⁶².

¹⁶⁰ - ترتيب المدارك: 36/2.

¹⁶¹ - أثر الحديث يآثره بالضم: نقله ورواه.

¹⁶² - الوسيلة إلى كشف العقيلة للسخاوي: 83-85، والواقع أن كلا نقل عما وصف بالمصحف الإمام، أو العثماني، أو مصحف عثمان، وهو وصف شجع على إطلاقه وجزم الكثيرين بصدقه وصحته، ووجوده في المسجد النبوي في تلك الحقبة، وقد ربط بعض الرواة بينه وبين مقتل عثمان وهو في حجره، وأن دمه وقع منه على قوله «فسيكفيهم الله» من سورة البقرة وهذا تخليط منهم بين مصحفه الشخصي المصحف الإمام الذي دونه لأهل المدينة عند تدوين المصاحف التي بعث بها إلى الأمصار، وقد ذكر عمر بن شبة النميري البصري في تاريخ المدينة المنورة: (7/1) أن «أول من جمع القرآن في مصحفه وكتبه عثمان بن عفان، ثم وضعه في المسجد، فأمر به يقرأ في كل غداة» هكذا ساق الخبر بسند صحيح، ولكنه ساق بعده خبرا يدل على ضياع هذا

وقد كان أبو بكر اللبيب في شرحه للبيتين في "الدرة الصقيلة" أجلى بيانا وأكثر ميلا إلى الانتصار لما نقله الإمام نافع وترجيحه حيث قال: «يريد أن نافعاً — رحمه الله — وقع بينه وبين أبي عبيد اختلاف في الرسم، وذلك أن أبا عبيد لم يخالف نافعاً إلا في مواضع يسيرة أدركه فيها إيهام، كقوله: «رأيت في الإمام ﴿ولات حين مناصر﴾¹⁶³ متصلة التاء بالحاء، وقد أنكر عليه ذلك وغيره مما سنذكره في مواضعه إن شاء الله» ثم قال اللبيب في ترجيح ما نقله نافع من ذلك: «وذلك أن نافعاً ولد بالمدينة، وقرأ بالمدينة، وأقرأ الناس بجميع القراءات، وعاش عمراً طويلاً، ومات بالمدينة سنة تسع وستين ومائة، فكان المصحف الذي أعطى عثمان أهل المدينة لا يزال عنده، فيكثر مطالعته ومواظبته إياه حتى تصور في خلده، فلم تؤخذ حقيقة الرسم إلا عن نافع، وعنه أخذ الغازي بن قيس... وأبو عبيد إنما رأى المصحف مرة واحدة، ولكنه ذكر في كتابه المعروف بـ "فضائل القرآن"¹⁶⁴ أنه تصفحه كله ورقة ورقة¹⁶⁵، فمن بقي ينظر عمره في مصحف كمن رآه في يوم أو يومين، فكان أبو عبيد ربما توهم في النقل. فهذا سبب الاختلاف بينهما» ثم قال: «فنقل نافع أصح من نقل أبي عبيد لما ذكرته، وبالله التوفيق»¹⁶⁶.

ومهما يكن الأمر فإن نافعاً كان ألصق بالمصحف المدني من أبي عبيد، وهو بالتالي أحق أن يعتمد في تحريره، وهو أولى أن يكون قد اطلع على جليلة الأمر، سواء تعلق الأمر بمصحف الإمام الذي كتبه عثمان لأهل المدينة، أم بمصحفه الشخصي، وقد صح عن نافع أنه كما اطلع على مصحف أهل المدينة وهو المصحف الرسمي، فقد اطلع على مصحف عثمان الخاص به، ولعله لذلك اعتمده الخليفة في ترميم مصحف عثمان. قال ابن أبي حاتم: «قرأ علي بن يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا بن وهب، أخبرنا زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي نعيم قال: أرسل إلي بعض الخلفاء مصحف عثمان ليصلحه، قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قتل، فوقع الدم على ﴿فسيقيم الله وهو السميع العليم﴾¹⁶⁷ فقال نافع: بَصُرْتُ عيني بالدم على هذه الآية وقد قَدُمُ»¹⁶⁸.

ولسنا ندري من الخليفة الذي أراد من نافع القيام بهذه الخدمة، ومتى؟ ولكن الذي يعيننا هو أن نافعاً كان مشهوداً له بالإمامة في المعرفة بهجاء المصاحف أو "هجاء السنة" كما سماه

الأصل، وأن عامل الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي في زمنه في أواخر القرن الأول كتب المصاحف من جديد، وبعث بها إلى الأمصار، وبعث المصحف إلى المدينة فكره ذلك آل عثمان¹⁶⁹ فقيل لهم: «أخرجوا مصحف عثمان — رضي الله عنه — فقيل: أصيب المصحف يوم قتل، قال: فلما استخلف المهدي بعث بمصحف إلى المدينة فهو الذي يقرأ فيه اليوم، وعزل مصحف الحجاج فهو في الصندوق الذي دون المنبر» تاريخ المدينة المنورة: 7/1-8.

¹⁶⁸ - سورة ص الآية رقم 2.

¹⁶⁴ - الكتاب مشهور، طبع بتحقيق وهي سليمان غاوي الطبعة 1: 1411هـ - 1991 دار الكتب العلمية — بيروت لبنان، ثم طبع بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط بتحقيق أحمد عبد الواحد الخطاطي: 1415هـ - 1995م.

¹⁶⁵ قرأت كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد في طبعة دار الكتب العلمية وطبعة الأوقاف المغربية فلم أقف على موضع ذكره فيه.

¹⁶⁶ الدرة الصقيلة في شرح العقيلة لأبي بكر بن عبد الغني اللبيب (مخطوط) وانظر كتاب "قراءة الإمام نافع": 360/1 -

361.

¹⁶⁷ - سورة البقرة: الآية رقم 137.

¹⁶⁸ - تفسير ابن كثير: 330/1.

صاحبه الغازي بن قيس، وأنه «كان عمدة علماء الرسم في نقل رسوم المصحف المدني، وأن عامة المأثور عندنا في ذلك إنما مرجعه إلى الرواية عنه، وفي مقابل ذلك نجد صاحبه الإمام مالك بن أنس يعتني إلى جانب التوثيق بما يرجع إلى الحكم الفقهي»¹⁶⁹ فكان التكامل بينهما في ذلك مما أسهم في رفع الكثير من الإشكال عن المتعلمين.

وقد حفلت كتب الرسم القديمة بالنقول في موضوع الرسم والضبط عن الإمام نافع من طريق راوي قراءته وخليفته في الإقراء بالمدينة: عيسى بن مينا الزرقي المشهور بقالون، نجد ذلك في كتاب "المقنع في رسم المصاحف" لأبي عمرو الداني مرتباً على ترتيب السور في المصحف¹⁷⁰، كما نجد النقل عنه في كتاب الطلمنكي¹⁷¹، وعند أبي داود سليمان بن نجاح في كتاب "التبيين لهجاء مصحف أمير المؤمنين"¹⁷²، وعند أبي بكر بن أشته في كتاب "المصاحف"¹⁷³، وأبي محمد عبد الله بن سهل صاحب أبي عمرو الداني في كتاب "الدر المنظوم"¹⁷⁴.

ولم تقف عناية نافع بالمصحف عند حدود رسمه وضبطه، وإنما اهتم بمعرفة مواقع رؤوس الآي، فكان من رواة العدد المدني الأول، وهو العدد المنقول عن أهل المدينة دون عزو إلى واضع معين¹⁷⁵، كما روي من طريقه العد المدني الأخير وهو المنسوب إلى شيخه أبي جعفر المدني وشيبة بن نصاب¹⁷⁶.

وكما اهتم من علم المصاحف أيضاً بتحديد مواقع الوقف، وألف في ذلك كتاب "وقف التمام"، فكان من الرواد الذين سبقوا إلى التأليف فيه كما قال أبو جعفر النحاس (ت328هـ): «لست أعلم أحداً من الأئمة الذين أخذت عنهم القراءة له كتاب مفرد في "التمام" إلا نافعاً ويعقوب، فإني وجدت لكل واحد منهما كتاباً في "التمام"¹⁷⁷ وقد ذكر الحافظ ابن الجزري أن لشيبة بن نصاب شيخ نافع مثل هذا التأليف وقال: هو أول من ألف في الوقف، وكتابه مشهور»¹⁷⁸.

وقد أشار الإمام الشاطبي في "ناظمة الزهر" إلى ريادة الإمام نافع في رواية العدد المدني في قوله فيها:

¹⁶⁹ — من أمثلة ذلك ما حدث به يحيى بن بكير "عن مالك بن أنس أنه كان يكره أن يمس المصحف وإن كان بعلاقته أو قال: في غلافه أو كان على وسادة، إلا وهو طاهر قال: وليس ذلك إلا إكراماً للقرآن" — فضائل القرآن لأبي عبيد: 296/1.

¹⁷⁰ — المقنع: 10-15.

¹⁷¹ — هو أبو عمر أحمد بن عمر الطلمنكي الأندلسي الفقيه المقرئ صاحب الروضة في القراءات، أول تأليف أندلسي في السبع، توفي سنة 427هـ نقل ذلك عنه أبو بكر اللبيب في الدرّة الصقيلة (مخطوط).

¹⁷² — ينقل عنه اللبيب في مواضع من الدرّة.

¹⁷³ — النقل عنه أيضاً في الدرّة الصقيلة، وكتاب المصاحف مفقود.

¹⁷⁴ — نفسه وهو مفقود أيضاً.

¹⁷⁵ — انظر كتاب البيان عن عد أي القرآن لأبي عمرو الداني: 29، وجمال القراءة وكمال الإقراء للسخاوي: 189/1.

¹⁷⁶ — البيان للداني: 31، وفنون الألفان في علوم القرآن لابن الجوزي: 67-70 وجمال القراء: 189/1.

¹⁷⁷ — كتاب القطع والانتاف لأبي جعفر النحاس: 75، وانظر في تأليف التمام نافع بغية الوعاة للسيوطي: 458/1 ترجمة 938.

¹⁷⁸ — غاية النهاية: 330/1 ترجمة 1439.

ولما رأى الحفاظ أسلافهم عنوا
فمن نافع عن شعبة ويزيد أو
وحمة مع سفيان قد أسنده عن
والآخر إسماعيل يرويه عنهما
بأن رسول الله عد عليهما

بها دونوها عن أولي الفضل والبر
ل المدني إذ كل كوف به يقري
علي عن أشياخ ثقات ذوي خبر
بنقل ابن جهاز سليمان ذي النشر¹⁷⁹
له الآي توسيعا على الخلق في اليسر

اعتراف مالك لأستاذه نافع بإمامة القراء، والخلاف بينهما في الجهر بالبسملة أول الفاتحة:

وكما كان الإمام نافع يحفظ لصاحبه الإمام مالك حسن الصحبة ويحترم وجود حلقة العلمية قرب حلقة القراء بالمسجد النبوي، فقد كان الإمام مالك يراعي له جانب الأستاذية في علمه ومزله من إمامة التخصص في مجال علوم القراءة، ولا يعارضه فيما يرجع إليها حتى في بعض المسائل التي كان له فيها اجتهاد خاص، وقد ثارت في المدينة مسألة البسملة في أول سورة الفاتحة ما بين قراء المدينة وفقهائها، وكان لها صدى كاد يؤدي إلى نوع من المواجهة بين الإمامين مالك ومثلا للفقهاء، ونافعا مثلا للقراء، لولا أن مالكا عمد إلى نوع من المرونة وسلوك طريق الأدب مع الشيخ دون أن يزيد في وقود المعركة بالدخول معه في مساجلة حامية، وقابله نافع بمثل ذلك.

قضية الجهر بالبسملة في الصلاة بين مالك ونافع:

ولعل من المفيد هنا لأهمية هذه القضية، أن أقدم بين يدي الحديث عن السجال الذي نشب فيما بين قراء المدينة المنورة وفقهائها في حياة مالك ونافع وتلاميذهما مدخلا نفيسا صدر به الباحث الفاضل الدكتور عبد اللطيف بن محمد الجليلي لكتاب الحفاظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري المسمى بـ "الإنصاف فيما بين علماء المسلمين في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب من الاختلاف"¹⁸⁰ فقال في بيان أهمية المسألة موضوع الكتاب: «وقد شغلت هذه المسألة اهتمام العلماء قديما وحديثا، فكثرت المصنفات فيها¹⁸¹، وما هذا الاهتمام إلا لعظمتها، فهي تتعلق بالصلاة التي هي عماد الدين: هل تقرأ البسملة فيها أم لا تقرأ؟ وتتعلق أيضا بالقرآن الكريم كلام رب العالمين ومصدر التشريع، هل هي آية من سورة الفاتحة أم لا؟ يقول الإمام النووي: «اعلم أن مسألة البسملة عظيمة مهمة ينبنى عليها صحة الصلاة التي هي أعظم الأركان بعد التوحيد»¹⁸²، وقد بالغ بعض أهل العلم في تعظيم هذه المسألة حتى عدها من مسائل الاعتقاد¹⁸³، وكان بعض الفقهاء لا يتكلم من الفقه إلا في هذه المسألة، يقول ابن

¹⁷⁹ — ناظمة الزهر للشاطي ضمن مجموع إتخاف البررة بالمون العشرة: 343.

¹⁸⁰ — نشر الكتاب بمكتبة أضواء السلف بالرياض المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى 1417هـ — 1997م.

¹⁸¹ — ذكر الحق الفاضل خمسة وعشرين منها وعرف بها في مقدمة تحقيقه للإنصاف: 97—104.

¹⁸² — المجموع للنووي: 267/3.

¹⁸³ — انظر نيل الأوطار للشوكاني: 229/2.

العربي: «إن القاضي بن الطيب¹⁸⁴ لا يتكلم من الفقه¹⁸⁵ إلا في هذه المسألة خاصة لأنها متعلقة بالأصول»¹⁸⁶.

وفي بعض العصور وصل الخلاف في هذه المسألة من الحدة والغلو والمبالغة إلى أن صار الحكام يلزمون الناس بما يرونه راجحا فيها، فهذا المقريري يذكر في ترجمة محمد بن حسن المالكي أنه أمّ الناس بالجامع العتيق بمصر في شهر ربيع الآخر سنة (359هـ)¹⁸⁷ وجهر بالبسملة على كره منه¹⁸⁸.

وفي عصر الإمام الشوكاني (ت1250هـ) ألزم الناس بترك الجهر فأرسل بعض الفضلاء إلى الشوكاني رسالة يقول فيها: «ظهرت في جهتنا في هذه المدة القريبة من بعض الأعلام الأكابر، وأهل الأمر في تلك الجهة الفتيا بترك الجهر بسم الله الرحمن الرحيم، وإلزام الناس بذلك، زاعما أنه لم يصح فيه عن النبي ﷺ شيء من الحديث، وأنه لاحق بالبدعة، بل ربما يعاقب على الجهر بها...».

وللفائدة أنقل بداية جواب الشوكاني عليه قال رحمه الله: «اعلم أن مثل هذه المسألة ليست من مواطن الإنكار على العامل بأي القولين، ولا يتصدر لإنكار ذلك من له نصيب من علم وحظ من عرفان، فقد اختلفت فيها الأدلة اختلافا أوضح من شمس النهار، واختلف فيها أهل العلم من سلف هذه الأمة وخلفها اختلافا لا ينكره المقصرون فضلا عن المتبحرين في المعارف العلمية»¹⁸⁹، وقد ناقش الإمام أبو عمر بن عبد البر المذاهب والأقوال وأدلتها في المسألة، وأهمها ثلاثة مذاهب، ذكرها محقق الكتاب مجملة في ثلاثة أقوال، ثم زاد عليها أربعة أقوال من أعجبها القول السابع: يستحب الجهر بها في المدينة دون غيرها قال: قال ابن كثير: وهذا القول رواية عن أحمد، وكأنه استحب ذلك فيها لأن أهلها في زمانه كانوا ليرون قراءتها بالكلية، ليين لهم مشروعية قراءتها كما جهر بن عباس في صلاة الجنازة بقراءة الفاتحة، وقال: ليعلموا أنها سنة: وكذلك جهر عمر بالاستفتاح. قال ابن كثير: «أو لعله استحب ذلك فيها لحديث معاوية حيث أسر بها فأنكر عليه أهلها حتى جهر بها»¹⁹⁰.

¹⁸⁴ — المراد أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب الانتصار لنقل القرآن، توفي سنة 403 هـ.

¹⁸⁵ — يعني لا يدخل من مسائل الفقه في قضايا العقيدة إلا هذه المسألة.

¹⁸⁶ — عارضة الأحوذى لابن العربي: 44/2.

¹⁸⁷ — يعني في هذا التاريخ الذي غلب فيه في مصر مذهب الإمام الشافعي بسبب انتقال الشافعي إليها وكثرة الآخذين عنه وسيطرته.

¹⁸⁸ — المقفى الكبير المقريري (اختيار محمد البعلادي) ص218.

¹⁸⁹ — مقدمة تحقيق الإنصاف: 86-87.

¹⁹⁰ — مقدمة التحقيق: 90-91 وأشار إلى الأحكام الكبرى لابن العربي ق 179/ب.

وحديث معاوية رضي الله عنه هو عند الإمام أبي الحسين السخاوي في مجال القراء: 194/1-195 عن أنس بن مالك قال: صلى معاوية بالمدينة صلاة يجهر فيها بالقراءة، فلم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) ولم يكر في الخفض والرفع، فلما فرغ ناداه المهاجرون والأنصار، يا معاوية نقصت الصلاة، أين بسم الله الرحمن الرحيم؟ وأين التكبير إذا خفضت ورفعت؟ فكان إذا صلى بهم بعد ذلك قرأ بسم الله الرحمن الرحيم وكبر، قال السخاوي: وهذا يدل على أن الجهر بها في أول الفاتحة من الصلاة من عمل أهل المدينة وأما آية منها لقولهم: نقصت الصلاة».

فالمسألة إذن مسألة خلاف كبيرة حتى في المدينة النبوية نفسها، فقد كان عامة أهلها على مذهب قرائها في الجهر بما لا على مذهب فقهاءها في تركها، ولا شك أن مستند القراء يرجع إلى تواتر النقل، لأن القراءة إنما عمادها الرواية المستفيضة والنقل المتواتر، بخلاف مستند الفقهاء الذي عماده استعمال الأدلة وقواعد الاجتهاد في فهم دلالاتها على وفاق أصول النظر الفقهي، وطرق الاستنباط المعتمدة عند الفقهاء، وههنا موضوع الإشكال عند الاستدلال، وهو ما حاول الإمام مالك أن يتجاوزه بالتسليم للإمام نافع في الجانب القرائي من المسألة باعتبارها مسألة من المسائل التي يرجع فيها إلى مذاهب القراء لا إلى مذاهب الفقهاء، أو هكذا يبدو مما قيل من تسليمه لنافع فيما ذهب إليه، إما رجوعاً منه إلى مذهبه في وقتها، وإما تجنباً لمباحثته في مسألة لو كان الفصل فيها ممكناً بدليل قطعي لانتهى إليه الجميع وسلم إليه حسماً للخلاف.

قال الحافظ بن الجزري في كتاب "النشر" في التنبيهات التي ختم بها باب البسمة: (الثامن) في حكمها، وهل هي آية في أول سورة كتبت فيه أم لا؟ وهذه مسألة اختلف الناس فيها وبسط القول فيها في غير هذا الموضع، ولا تعلق للقراءة بذلك، إلا أنه لما جرت عادة أكثر القراء التعرض لذلك لم نخل كتابنا منه لتعرف مذاهب أئمة القراءة فيها، فنقول: «اختلف في هذه المسألة على خمسة أقوال:

أحدها: أنها آية من الفاتحة فقط، وهذا مذهب أهل مكة والكوفة ومن وافقهم، وروي قولاً للشافعي.

الثاني: أنها آية من أول الفاتحة ومن أول كل سورة، وهو الأصح من مذهب الشافعي ومن وافقه، وهو رواية عن أحمد ونسب إلى أبي حنيفة.

الثالث: أنها آية من أول الفاتحة، بعض آية من غيرها، وهو القول الثاني للشافعي. الرابع: أنها آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهو المشهور عن أحمد، وقول داود وأصحابه، وحكاه أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي، وهو من كبار أصحاب أبي حنيفة¹⁹¹.

الخامس: أنها ليست آية ولا بعض آية من أول الفاتحة ولا من أول غيرها، وإنما كتبت للتيمن والتبرك، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة والثوري ومن وافقهم، وذلك مع إجماعهم على أنها بعض آية من سورة النمل، الموضع من سورة النمل¹⁹²، وروي مثل قول مالك في ذلك كله عن الأوزاعي، وبذلك قال أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري¹⁹³ وأجاز مالك وأصحابه قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم) في صلاة النافلة في أول فاتحة الكتاب، وفي سائر

¹⁹¹ — انظر في مذهب الكرخي كتاب الإنصاف لابن عبد البر: 157 وجمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي 191/1—

¹⁹² .

¹⁹² — انظر قول مالك في جمال القراء للسخاوي: 192/1 وفي الإنصاف لابن عبد البر: 153.

¹⁹³ — انظر تفسير جامع البيان للطبري: 51/1—52 قال: وقد بينا الصواب من القول عندنا في ذلك في كتابنا "اللطيف في أحكام شرائع الإسلام" بوجيز من القول، وسنستقصي بيان ذلك في كتابنا الأكبر في أحكام شرائع الإسلام إن شاء الله ذلك.

سور القرآن للمتجهدين، ولمن يعرض القرآن عرضاً على المقرئين، وأم القرآن عندهم سبع آيات، يعدون (أنعمت عليهم) آية، وهو عد أهل المدينة من القراء وأهل الشام وأهل البصرة»¹⁹⁴.

والظاهر أن تسليم مالك لنافع بإمامة القراء في قوله: «ونافع إمام الناس في القراءة» لم يجعله ينتقل إلى قوله في أن السنة الجهر بها كما قال نافع، أو إلى أن يعتبر أن الجهر بها داخل في عمل أهل المدينة الذي هو حجة في مذهبه لعوارض قامت عنده جعلته لا يجعلها من العمل السائر المعبر.

وقد ساق الإمام السخاوي في "جمال القراء" ما يدل على أن السجل بينه وبين أصحاب نافع لم يقف عند هذا الحد، بل ذهب إلى حد معارضته في الأدلة التي يعتمدها في القضية وبيان ضعف منهجه في قبول الرواية، وذلك ما يدل عليه قول محمد بن إسحاق المسيبي قال: أخبرني أبي أنه لما صلى بالناس بالمدينة جهر بيسم الله الرحمن الرحيم قال: فأتاني الأعشى أبو بكر بن أخت مالك بن أنس¹⁹⁵ -رحمه الله- فقال: إن أبا عبد الله يقرأ عليك السلام ورحمة الله، ويقول لك: من خفته على خلاف أهل المدينة فإنك ممن لم أخف، وقد كان منك شيء، قلت: وما هو؟ قال: الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، قال: فأبلغ عنه السلام كما أبلغتني، وقل له: إني كثيراً ما سمعتك تقول: لا تأخذوا عن أهل العراق، فإني لم أدرك أحداً من أصحابنا يأخذ عنهم، وإنما جئت في تركها -يعني البسمة- عن حميد الطويل -يعني وهو من أهل العراق-¹⁹⁶، فإن أحببت أخذنا عن أهل العراق أخذنا هذا وغيره من قولهم¹⁹⁷، وإلا تركنا حميدا مع غيره فلم يكن علي به حجة. وقد سمعتك كثيراً ما تقول: خذوا كل علم عن أهلهم، وعلم القرآن بالمدينة عن نافع، فسألته عن قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، فأمرني بها وقال: أشهد أنها من السبع المثاني، وأن الله عز وجل أنزلها¹⁹⁸ ثم قال:

وحدثني عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر أنه كان يتدلى بها ويفتح كل سورة.
وحدثني ابن أبي ذئب عن ابن شهاب قال: مضت السنة بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم»¹⁹⁹.

¹⁹⁴ — الإنصاف لابن عبد البر: 153-154 وانظر في مذاهبهم في عد الآي كتاب البيان في آي القرآن لأبي عمرو الداني: 139 وجمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي: 190/1.

¹⁹⁵ — هو عبد الحميد بن أبي أويس وقد تقدم ذكره في الرواية عن نافع.

¹⁹⁶ — هو حميد بن أبي حميد يعرف بالطويل، من رواة الحديث بالبصرة، يروي عن أنس بن مالك الأنصاري والحسن وعكرمة، وعنه شعبة ومالك والسفيان والحمادان وخلق، قال شعبة: لم يسمع من أنس إلا أربعة وعشرين حديثاً، قال الهيثم: مات سنة 142 خلاصة للخزرجي: 94.

¹⁹⁷ — يعني أخذنا حديثه عن أنس أنه قال: صليت خلف النبي وفي رواية مالك في الموطأ في رواية يحيى بن يحيى الليثي: 57 كتاب الصلاة باب العمل في القراءة: ح 179 بلفظ: قمت وراء أبي بكر وعمر وعثمان، فكلمهم كان لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح الصلاة» وانظر المدونة 188/1 وقال في الإنصاف: 203 هكذا رواه مالك عن حميد الطويل عن أنس موقوفاً لم يسنده لم يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم.

¹⁹⁸ — جمال القراء للسخاوي: 444/2.

¹⁹⁹ — جمال القراء: 444/2.

وهكذا نرى إسحاق المسيبي وهو من أعلام رواة القراءة عن نافع²⁰⁰ يعارض مالك ويقرع الحجة بالحجة مستدلاً عليه بمذهب نافع القارئ في القضية ومناقشاً له من جهة المنهج المتمثلة في نفيه لتلامذته عن الأخذ عن أهل العراق، ثم هو في النهاية يستند في إطراح البسملة على رواية حميد الطويل عن أنس، وحميد عراقي بصري، فلا حجة في روايته على مقتضى هذا النهي، فلا ينبغي إذن أن يحتج به مالك طرداً لمذهبه في ترك الرواية عن أهل العراق، وإلا لزمه أن يقر غيره على ما صح عنده عنهم دون اعتراض أو تحريج.

كما نرى المسيبي -وهذا هو الذي يعيننا- قد احتج بحجة منهجية أخرى، وهي ما ذكر أنه كثيراً ما سمع مالكا يقول: خذوا كل علم عن أهله، قال المسيبي: وعلم القرآن بالمدينة عن نافع، يعني: وقضية البسملة قضية قرآنية من جهة الثبوت والنفي، ومن ثم فهي في نظر المسيبي من شأن نافع لأنه إمام القراءة في البلد، وقد سأله عنها فشهد بأنها قرآن منزل، وأنها من السبع المثاني، أي من سورة الفاتحة، وزاد على ذلك أمره له بإثباتها، وروى له من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقول ابن شهاب الزهري: مضت السنة بقراءتها، ما لم يبق معه دليل في نظره، بخلاف هذا يمكن أن ينتهض لاستدلال المخالف.

وهذا هو المروي عند القراء فيما أسنده أبو عمرو الداني في "جامع البيان" بسنده إلى المسيبي قال: «كنا نقرأ بسم الله الرحمن الرحيم أول فاتحة الكتاب، وفي أول سورة البقرة، وبين السورتين في الصلاة والعرض، هذا كان مذهب القراء بالمدينة قال: وفقهاء المدينة لا يفعلون ذلك. قال الداني: وروى ابن المسيبي عن أبيه عن نافع أنه كان يجهر بسم الله الرحمن الرحيم عند افتتاح السورة في جميع القرآن»²⁰¹.

على أننا هنا غير معنيين من هذا السجال بترجيح هذا المذهب في الجهر بالبسملة في العرض والصلاة، وإنما غرضنا بيان منزلة نافع في قضايا القراءة عند الإمام مالك، ويعيننا منه تسليمه لنافع الذي عبر عنه الحافظ ابن الجزري في ترجمته بقوله: «وقال مالك لما سأله عن البسملة: سلوا عن كل علم أهله، ونافع إمام الناس في القراءة»²⁰². وعبر عنه أبو القاسم الهذلي بقوله عن مالك: إنه سأل نافعاً عن البسملة، فقال: «السنة الجهر بها. قال: فسلم إليه وقال: كل علم يسأل عنه أهله»²⁰³.

²⁰⁰ — وهو أحد طرق قراءة نافع عند رواة العشر الصغير الخاص بهذه القراءة، وبه صدر أبو عمرو الداني في قوله في ذكر أصحاب نافع في الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة:

من روي عن نافع إسحاق ورش وقالون وإسماعيل وكلهم مؤتمن جليل ومثله ثلاثة حذاق

وقال ابن الجزري في ترجمته في "غاية النهاية" 157/1-158: "أبو محمد إسحاق بن محمد المسيبي المدني إمام جليل، عالم بالحدیث، قيم في قراءة نافع، ضابط لها محقق فقيه، قرأ على نافع وغيره... قال أبو حاتم السجستاني: إذا حدثت عن المسيبي عن نافع ففرغ سمعك وقلبك، فإنه أنقن الناس، وأعرفهم بقراءة أهل المدينة وأقرؤهم للسنة، وأفهمهم بالعربية، توفي سنة ست ومائتين".

²⁰¹ — جامع البيان: 147-148.

²⁰² — غاية النهاية: 333/2 ومثله عند الذهبي في "معرفة القراء الكبار": 89/1-90.

²⁰³ — نقله ابن الجزري في النشر: 271/1.

فهل كان تسليم مالك لنافع هو تسليم العالم الذي يدرك من دليل مخالفه ما لا يجد معه محيصا عن الإذعان له، أو تسليم المستفتي الذي يريد الخروج من عهدة الخلاف برد السؤال في هذا العلم إلى أهله، باعتبار المسألة مسألة قرآنية، أو يغلب عليها الجانب القرآني، أو هي على الأقل مسألة مشتركة بين القراء والفقهاء، ومن ثم فمدارك الاستدلال فيها مختلفة، أم أنه مجرد تسليم مؤدب من التلميذ لأستاذه قطعاً للمماحكة وإبقاء على صفاء الود، مع الاحتفاظ بالموقف لتوافر الأدلة المقابلة؟.

لعل الاحتمال الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة، لأنه يطابق ما عليه المذهب، «وكان -رسمي الله عنه- يعيب المرء والجدال في الدين»²⁰⁴، ويدل أن سكوته وتسليمه الظاهر لنافع إنما ذهب به هذا المذهب ما جاء عند صاحبه ابن القاسم في المدونة في باب القراءة في الصلاة حيث قال في هذه القضية: «وقال مالك: لا يقرأ في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم في المكتوبة، لا سرا في نفسه ولا جهرا، قال: وقال مالك: وهي السنة، وعليها أدركت الناس»²⁰⁵.

فمالك على هذا يرى أن السنة في المدينة ترك البسملة في الفريضة سرا وجهرا، ونافع يقول: «السنة الجهر بها»، وابن شهاب كما تقدم فيما نقله عنه ابن أبي ذئب يقول: «مضت السنة بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم» فالمسألة إذن عويصة، والحسم فيها لم يكن ممكنا، ولذلك أقام كل فريق من قراء المدينة وفقهائها على ما حكاها المسيبي من الخلاف بينهم في ذلك. ومن الطريف أن أئمة القراء في المغرب -رهم مالكية في مذهبهم الفقهي، نافعية في قراءتهم الرسمية- قد استوعبوا هذا الخلاف، فعملوا في القراءة على مقتضى الرواية القرآنية، وفي الفقه على موافقة المذهب الفقهي. ويتجلى ذلك في هذا الاحتياط للمذهب الفقهي حين الحديث عن الحكم الأدائي في قول الحافظ أبي عمرو الداني في باب القول في التسمية من الأرجوزة المنبهة:

والفضل بالتسمية المختار
أريد في الأداء أو في العرض
ولا أقول في صلاة الفرض
والكل من أئمة البلدان
بسملة في فاتح القرآن²⁰⁶

وكما يتجلى في قول أبي الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني في رائيته في قراءة نافع المعروفة بالحصرية:

وإن كنت في غير الفريضة قارئاً
مدى الدهر إلا في ابتداء براءة
فبسم لقالون لدى السور الزهر
لتزليها بالسيف من مرسل النذر²⁰⁷
فقرأونا عمدوا إلى أعمال الروائين والمذهبيين معا، لكن كل في مجاله، بينما عمد الإمام الشافعي إلى أعمال رواية القراء وحدها، لتواترها في النقل، وعلى هذا خرج الحافظ ابن

²⁰⁴ — كتاب مناقب الإمام مالك لعيسى بن مسعود الزواوي، منشور مع المدونة الكبرى في الفقه المالكي: 98/1.

²⁰⁵ — المدونة الكبرى: 186/1.

²⁰⁶ — الأرجوزة المنبهة: 207 الأبيات: 648—650.

²⁰⁷ — انظر القصيدة في كتابنا قراءة الإمام نافع عند الغاربة: 55/2.

الجزري مخالفته لمالك فيها، فقال في كتابه "منجد المقرئين" في حديثه عن التواتر: «ومما يحقق لكل أن قراءة أهل كل بلد متواترة بالنسبة إليهم، أن الإمام الشافعي -رضي الله عنه- جعل البسملة من القرآن، مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضي عدم كونها من القرآن، لأنه من أهل مكة، وهم يثبتون البسملة بين السورتين، ويعدها من أول الفاتحة آية، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسط عن ابن كثير، فلم يعتمد على روايته عن مالك في عدم البسملة، لأنها آحاد، واعتمد على قراءة ابن كثير، لأنها متواترة، وهذا لطيف فتأمل، فإني كنت أجد في كتب أصحابنا يقولون: إن الشافعي -رضي الله عنه- روى حديث عدم البسملة عن مالك ولم يعول عليه، فدل على أنه ظهرت له علة فيه، وإلا لما ترك العمل به»²⁰⁸.

ومهما يكن فإن الإمام مالكا قد سلم لنافع حين أخبره بقوله: السنة الجهر بها، وإن كان في مذهبه يرى أن السنة في تركها، وهذا منه نوع من المرونة وحسن التأني في التعاطي مع مسائل الخلاف، لاسيما حين يتعلق الخلاف بقضية أفتى فيها نافع بوجه ذهب إلى أنه هو السنة، فاقتضى جانب الأدب منه التسليم إليه.

رأى مالك في قراءة نافع أنها السنة أو سنة أهل المدينة

إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية -كما يقال- فلقد كان لمالك في شيخه نافع رأي جميل ذهب الرواة به كل مذهب، واعتبروا به قراءته "بز القراءات"²⁰⁹ من حيث الفصاحة والجودة.

قال أبو بكر عبد الحميد بن أبي أويس الملقب بالأعشى وهو راوية جليل في قراءة نافع ومذهب مالك أيضا، وهو ابن اخته كما تقدم:

«كان نافع يسهل القراءة لمن قرأ عليه، إلا أن يقول له إنسان: أريد قراءتك، فيأخذه بالنبر²¹⁰ في مواضعه، وإتمام المدات، وكانوا يقولون: قراءة نافع بز القراءة، قال السخاوي: قلت: والله أعلم لما فيها من الأنواع»²¹¹.

وقال راوي قراءته أبو عبد الله محمد بن إسحاق المسيبي²¹²: سأل الكسائي أمير المؤمنين -الرشيد- أن يجمع بينه وبين أبي، فسأله المسيبي عن «مالي لا أعبد» و «مالي لا أرى المهدم»²¹³ «ولي نعمة» «ولي دين»²¹⁴ فقال الكسائي: هذا مما لا أعلمه بعلمي، ولا يعلمه أحد إلا بالتعلم، ثم سأله -يعني الكسائي- عن حروف: كيف كان أبو جعفر يقرأها؟ وكيف كان شبيهة يقرأها؟ فقال المسيبي: قراءة نافع فيها كذا وكذا، وهي قراءتنا، وإنه قد كفانا

²⁰⁸ - منجد المقرئين: 69.

²⁰⁹ - البز: يفتح الباء وزاي مشددة من فاخر أنواع الثياب. انظر لسان العرب: 311/5-312 مادة "بزز".

²¹⁰ - النبر: يفتح النون وسكون الباء: الهمز.

²¹¹ - جمال القراء: 447/2.

²¹² - هو المعروف في طرق العشر الصغير بولد إسحاق، وهو أحد طريقين في رواية المسيبي عن نافع، والأخرى طريق محمد بن سعدان، ويرمز لهما مع المسيبي برمز "سود" في رموز العشر الصغير الذي هو "جيتص بمحق سود لفر".

²¹³ - السؤال كان عن الباء لما أسكنها نافع في (مالي لا أرى) وفتحها في (ومالي لا أعبد) في سورة يس.

²¹⁴ - يعني لماذا أسكن الباء في (ولي نعمة) وفتحها في (ولي دين) في سورة الكافرون.

المؤونة، حتى لو أدركنا من أدرك ما عدونا ما فعل، إنه أخبرنا أنه أدرك هؤلاء القوم، فنظر إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم، فأخذه وما شذ فيه واحد فتركه.

قال: فإني على حال أحب أن تعلمني، فأني، فكلم الكساني الفضل²¹⁵ وذكر أنه إنما سأل أمير المؤمنين هارون هذا المجلس لهذا المعنى، فقال له الفضل: أحب أن تحببه إن خف عليك، فإن له من أمير المؤمنين ومنا مكانا²¹⁶، فقال: ما يثقل علي أن أكون أعلمه، إلا أنه شيء قد أمتناه بالمدينة، واجتمعوا على قراءة نافع، قال: فإني أحب أن تفعل، قال: سل عما بدالك، فأخذ يسأله، وهو يجيبه: قال فيها أبو جعفر وشيبة وفلان²¹⁷.

هكذا إذن أمتت قراءة نافع بالمدينة هي المهيمنة لاجتماع أهل المدينة عليها دون غيرها وبشهادة مالك لها، فروى سعيد بن منصور في سننه أنه سمع مالكا يقول: قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم²¹⁸.

ونقل مثل ذلك عن الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وأحمد بن حنبل²¹⁹ كما علل به المؤلفون لتقديم نافع في الذكر، سواء في كتب القراءة، أو في بنائهم على قراءته في التفسير، وزاد بعضهم مكانه من الأستاذية لمالك إلى جانب شرف منتماه زمانا ومكانا في الصدر الأول والمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

فأبو بكر مجاهد شيخ القراء ومسبع السبعة استهل بذكره كتابه وقال: «وإنما بدأت بذكر أهل المدينة لأنهم مهاجر رسول الله ﷺ ومعند الأكابر من صحابته، وبما حفظ عنه الآخر من أمره، فكان الإمام الذي قام بالقراءة بمدينة رسول الله ﷺ بعد التابعين أبو عبد الرحمن نافع بن أبي نعيم»²²⁰.

وبه ابتدأ معظم المؤلفين في القراءات، لاسيما في المدرسة المغربية، كالحافظ أبي عمرو الداني في "التيسير"²²¹ و"الأرجوزة المنبهة"²²²، وقال في "جامع البيان": «فأول ما ينبغي أن نبتدئ بذكره منهم، من قام بالقراءة بمدينة رسول الله ﷺ وأتم به فيها، إذ هي حرم رسول الله ﷺ ودار هجرته ومبعثه ومحشره، ومعند الأكابر من الصحابة وتابعيهم، وإذ بها حفظ عنه الآخر

²¹⁵ — هو ابن الربيع وزير هارون الرشيد.

²¹⁶ — يعني مكانه من إقرائه لولي عهده محمد الأمين «ابن الرشيد» انظر في سبب اتصاله به إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي:

255/2 و"معرفة القراء الكبار" للذهبي: 120/1.

²¹⁷ — انظر "جامع البيان" للقي: 46 و"جمال القراء" للسخاوي: 443/2-444 و"قراءة القراء المعروفين" للأندراي: 62.

²¹⁸ — نقله ابن مجاهد في السبعة في القراءات: 62، وانظر "جامع البيان" للداني: 44، و"معرفة القراء الكبار: 30/1 وتم أف

عليه في القسم المطبوع من سنن سعيد بن منصور.

²¹⁹ — انظر إبراز المعاني من حوز الأمان لأبي شامة المقدسي: 6، و"معرفة القراء الكبار: 90/1 و"السبعة" لابن مجاهد: 62

و"النشر" 112/1.

²²⁰ — كتاب السبعة: 53.

²²¹ — التيسير في القراءات السبع: 4.

²²² — الأرجوزة المنبهة: 115-116 الأبيات: 209-214.

من أمره، ²²³ كثيرا إلى يوم الدين، وهو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني» ²²³، فقله: «وإذ بها حفظ عنه الآخر من أمره» إشارة واضحة إلى معنى قول مالك عن قراءة نافع: سنة. وعلى هذا الهدي في تقديم نافع مسار الشاطبي في "حز الأمان" ²²⁴، وعامة من ألفوا أو نظموا في السبع والعشر، وبالرمز له بأول حروف أبي جاد رمزوا بالألف كما ابتدأ بذلك الشاطبي واعتمده القراء في المشرق والمغرب. وتبعهم المفسرون من أهل المغرب والأندلس فجعلوا الرتبة الأولى من التفسير لقراءته، كما قال الإمام أبو القاسم بن جزي في مقدمة تفسيره: «وإنما بنينا هذا الكتاب على قراءة نافع لوجهين:

— أحدهما أنها القراءة المستعملة في بلادنا بالأندلس وسائر المغرب.
— والأخرى اقتداء بالمدينة شرفها الله لأنها قراءة أهل المدينة، وقال مالك: قراءة نافع سنة» ²²⁵.

ونجد من المتأخرين الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسي يقول في مقدمة تفسيره المعروف بـ"التحرير والتنوير": «وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى بن مينا المدني الملقب بـ"قالون"، لأنها القراءة المدنية قارنا وراويا، ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس، ثم أذكر خلاف بقية العشرة» ²²⁶.
تأويل قول مالك عن قراءة نافع إنها سنة:

ولما كان ما أثر عن مالك وابن وهب وغيرهما من كون قراءة نافع سنة، يومهم بظاهره القول بأن غيرها من القراءات ليس بسنة، فقد احتاج الأمر إلى بيان، مخافة الوقوع في المخطو من التعريض، أو الخط على باقي القراءات.

ولعلماء القراءة في بيان تأويل قول مالك عن قراءة نافع إنما سنة تاويلات:
— أحدها قول أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت437هـ) في كتاب "التبصرة" أنه يعني بذلك سنة أهل المدينة قال: «والقراءات الثابتة من السنة التي لا مدفع فيها لأحد» ²²⁷. وهذا يفيد أن قراءة أهل كل مصر من الأمصار التي اشتهرت فيها قراءات القراء هي سنة في ذلك المصر.

— ثانيها أن مراده مزيتها على غيرا باعتبار الموضع، وذلك ما يستفاد من قول أبي الحسن بن بري في الدرر اللوامع في تعليل اختياره للنظم في قراءة نافع:

²²³ — جامع البيان: 43-45

²²⁴ — به بدأ في قوله:

فذاك الذي اختار المدينة منزلا

فأما الكريم السر في الطيب نافع

²²⁵ — كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: 7/1.

²²⁶ — التحرير والتنوير: 63/1.

²²⁷ — التبصرة في القراءات (ص45) وفي لفظ نقله الخراز عنه: "والقراءة كلها عندنا من السنة..." انظر القصد النافع للخراز:

إذ كان مقراً إمام الحرم
وللذي ورد فيه أنه
الثبت فيما قد روى المقدم
دون المقارئ سواء سنة²²⁸
قال شارحه الأول أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الخراز الشريشي (ت718هـ) في "القص
النافع": «فقول الناظم: «دون المقارئ سواء» يرجع إلى الورد، أي: ورد فيه دون سواء من
المقارئ، لا أنه سنة دون سواء على ما يتوهم من لفظه، ففي البيت تقديم وتأخير، والتقدير:
وللذي ورد فيه دون المقارئ سواء أنه سنة، ولا يلزم من كونه ورد فيه عن مالك ولم يرد في
غيره، أن يكون غيره ليس بسنة، بل القراءات كلها سنة، وإنما هذا على أصل مالك في تقديم
عمل أهل المدينة»²²⁹
وقال الإمام المنتوري: «ولا يلزم من كونه ورد فيه عن مالك ما ورد ولم يرد عنه في غيره،
أن يكون غيره ليس بسنة، بل القراءات كلها سنة. قال شيخنا أبو عبد الله القيجاطي²³⁰ رضي
الله عنه: «وذلك أن مالكا -رحمه الله- أراد أن يرجع قراءة نافع على غيرها من القراءات
فعبّر عن ذلك بأنها سنة، أي: هي الأولى بالإتباع من غيرها، لاجتهاد نافع، ولكون أهل المدينة
اجتمعوا عليه»²³¹. وثالث التأويلات ما ذهب إليه الإمام القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن
العربي المعافري في تفسيره من أن المراد تمثيل قراءة نافع لمقتضى الرخصة الواردة في القراءة
بالأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن فقال: «روى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالاً:
أخرج إلينا مالك مصحفاً لجده زعم أنه كتبه في أيام عثمان حين كتب المصاحف، مما فيه ﴿ولا
يخاف عقابها﴾ بالواو، وهكذا قرأ أبو عمرو من القراء السبعة وغيره، فإن قيل لم يقرأ به نافع،
وقد قال مالك: السنة قراءة نافع؟ قلنا: ليس كل أحد من أصحابه²³² ولا كل سامع يفهم
عنه، في قراءة نافع الهمز وحذفه، والمد وتركه، والتفخيم والترقيق، والإدغام والإظهار، في
نظائر لها من الخلاف في القراءات، فدل على أنه أراد: السنة في توسع الخلق في القراءة بهذه
الوجوه، من غير ارتباط إلى شيء مخصوص منها»²³³
وكأن بالقاضي أبي بكر بن العربي يشير إلى الخبر الذي أسنده الحافظ أبو عمرو الداني في
جامع البيان وغيره عن عبد الله بن عيسى المدني قال: قال لنا هارون بن موسى القروي،
أخبرني أبي عن نافع بن نعيم أنه كان يجيز كل ما قرئ عليه، إلا أن يسأله إنسان أن يقفه على
قراءته، فيقفه عليها»²³⁴

²²⁸ - الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام نافع لابن بري التازي، البيتان 14-15.

²²⁹ - القصد النافع لبغية الناشئ والبارع على الدرر اللوامع: 57-58.

²³⁰ - هو محمد بن محمد بن علي بن عمر القيجاطي الأندلسي (ت811هـ) حفيد أبي الحسن القيجاطي صاحب التكملة المفيدة
لقارئ القصيدة (ت730هـ) قال ابن الجزري: انتهت إليه مشيخة الإقراء في هذا الزمن بالأندلس. انظر غاية النهاية:
243/2-244.

²³¹ - شرح المنتوري على الدرر اللوامع لابن بري: 57/1.

²³² - المراد من تلامذته.

²³³ - أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي: القسم الرابع 1941.

²³⁴ - جامع البيان: 44.

وأُسند الحافظ الداني أيضا في "طبقات القراء" وغيره بسنده عن معلى بن دحية المصري قال: «سافرت بكتاب الليث²³⁵ إلى نافع لأقرأ عليه، فوجدته يقرئ الناس بجميع القراءات، فقلت له: يا أبا رؤيم، ما هذا؟ فقال لي: سبحان الله! أأحرم ثواب القرآن؟ أنا أقرئ الناس بجميع القراءات، حتى إذا كان من يريد حرق²³⁶ أقرأته به»²³⁷.
وقال عبد الحميد بن أبي أويس الملقب بالأعشى -وهو من كبار أصحاب نافع كما تقدم- : كان نافع يسهل القرآن لمن قرأ عليه، إلا أن يسأله»²³⁸.

وعلى أي هذه التأويلات حملنا قول مالك عن قراءة نافع إنما سنة، فإن مدلول القول لا يختلف، إذ يكشف عن بالغ التقدير والإشادة والتنويه بهذا الإمام وقراءته، ومن ثم فيمكن أن نقدر مقدار ما كان لهذا التنويه من أثر بليغ في صرف وجوه طلبه هذا الشأن من أهل المدينة والواردين عليها إلى الأخذ عن نافع وشذ الرجال إليه، للتشرف بالحصول على هذا التوجيه لقراءة القارئ بالعرض على إمام يرى إمام دار الهجرة في الفقه والآثار أن قراءته سنة أهل دار الهجرة، وأنها القراءة الجديرة بالتقديم والاعتبار، لهذه المزايا والمعاني التي توافرت فيها دون غيرها، كما تشرف مالك نفسه بهذا العرض وظل يعتز بالإخبار به ويغتنط، وهذا في نظرنا هو مفتاح السر في معرفة عوامل هيمنة هذه القراءة على غيرها بالمدينة المنورة في حياة مشايخه الكبار من القراء كابن هرمز وأبي جعفر وشيبة بن ناصح، وهي أيضا المؤشر إلى دراسة عوامل اعتماد قراءته قراءة رسمية في بلاد مصر لقرون عديدة، وفي الأقطار المغربية والأندلسية وفي المغرب الأقصى وما إليه من المائة الثالثة، أو أول الرابعة إلى اليوم.

عوامل اعتماد المغاربة قراءة نافع قراءة رسمية وأثر كونهم مالكية في ذلك

ولعلنا في الحاجة إلى العودة بذهن القارئ ونحن بصدد إنجاز القول في إبراز أهم عوامل اعتماد المغاربة عبر القرون الإسلامية لقراءة هذا الإمام قراءة رسمية، إلى ما نوهنا به في العنوان من فضيلة التدبير في الرواية، هذه الفضيلة التي كانت بمثابة اللحمة التي عن طريقها حدث هذا الالتحام التاريخي بين القراءة والمذهب عند أهل المغرب، وكأتهما وجهان لعملة واحدة، وهي عملة صعبة -كما يقال اليوم- إذ لم يتكرر مثلها ولا قريب منها في غير المغرب من البلاد الإسلامية، وإن هذا التمازج على هذه الشاكلة وذلك الالتحام ليوحي للناظر في عوامله وأسبابه بصعوبة الترجيح بين ما يؤدي إليه النظر فيه بين أن تكون الفضيلة في حدوثه للقراءة أم للمذهب؟ لاسيما وأن معظم الذين عادوا بالقراءة النافعية عادوا أيضا بالمذهب، بل إن رواد

²³⁵ — هو الليث بن سعد الفهمي الفقيه من أقران الإمام مالك ورفقائه في الطلب، وهو أيضا من أعلام تلامذة الإمام نافع في القراءة، توفي سنة خمس وسبعين ومائة قبل مالك بأربع سنين، ومولده سنة أربع وتسعين، غاية النهاية: 34/2 ترجمة 2638. ومعنى قوله: سافرت بكتاب الليث: أي برسالة توصية منه إلى نافع لتسهيل عملية عرضه للقراءة عليه لصعوبة الحصول على النوبة بسبب ازدحام العارضين عليه.

²³⁶ — أي: اختياري في القراءة، انظر كتاب قراءة الإمام نافع عند المغاربة: 333/1.

²³⁷ — نقله الذهبي في معرفة القراء الكبار: 132/1—133، والونشريسي في "المعيار المغرب" 105/2 وغاية النهاية: 304/2.

²³⁸ — انظر معرفة القراء الكبار للذهبي: 17/1.

هذه القراءة وطلائع رواة الموطأ في الأندلس وإفريقية والقيروان كانوا نفس الرواد والرواة، وحسبك بمثل الغازي بن قيس القرطبي (ت199هـ) الذي رحل في منتصف المائة الثانية فأخذ القراءة عرضا وسماعا عن نافع بن أبي نعيم وضبط عنه اختياره، و"الموطأ" عن الإمام مالك بن أنس، وهو أول من أدخل قراءة نافع وموطأ مالك إلى الأندلس، فيقال: إنه كان يحفظه بحيث لا يسقط منه ياء ولا واو، وصحح مصحفه على مصحف نافع ثلاث عشر مرة»²³⁹. وحسبك بعده في الأندلس بيجي بن يحيى الليثي المسمودي (ت234هـ) الذي رحل من الأندلس إلى المشرق، وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب، وسمع من نافع بن أبي نعيم القاري²⁴⁰. وما تزال روايته للموطأ أسير الروايات وأشهرها وأكثرها شروحا في المغرب والمشرق وتداولها بين العلماء.

وكفالك قبل هذا ومعه بالرواة عن الإمامين من أهل مصر والشام واليمن، فقد كانوا حملة للقراءة والمذهب معا، من أمثال عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وابنه عبد الصمد بن عبد الرحمن المعروف في رواية ورش بالعتقى، وأبي يحيى زكرياء بجي المعروف بلقب الوقار بتخفيف القاف، وسعيد بن أبي مريم الجمحي المصري والوليد بن مسلم الدمشقي وأبي قرّة موسى بن قرّة اليميني ومروان بن محمد الطاطري الدمشقي وأبي خلد بن محمد الشامي الدمشقي وخارجة بن مصعب السرخسي وسواهم كثير²⁴¹. ولقد توقفنا في كتابنا "قراءة الإمام نافع عند المغاربة"²⁴² عند العوامل المذكورة وبين ما كان للمذهب من بينها وذلك ضمن هذه العوامل السبعة:

أولاً: الرحلة إلى العباد

وهي رحلة مزدوجة المقصد عند طلاب العلم، سواء من جهة الجمع بين أداء فريضة الحج وسنة العمرة وبين طلب علوم الرواية، أم من حيث الجمع بين الأخذ للقراءة عن نافع والرواية للموطأ وغيره عن مالك، وقد اعتبر العلامة ابن خلدون هذا العامل عاملاً حاسماً فيما يخص انتشار مذهب مالك وتشبث أهل المغرب به «لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله، وتلاميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحاضرة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل»²⁴³.

ثانياً: إيتار مصاصب أهل المدينة على غيرها

²³⁹ — انظر ترجمته في غاية النهاية: 2/2 وسير أعلام النبلاء: 322/9-323، ترجمة 104.
²⁴⁰ — تاريخ علماء الأندلس لابن القرضي: 808/2، ترجمة 1554 ومثله في ترتيب المدارك ليعاض: 380/3.
²⁴¹ — انظر في الرواة عن نافع وفي ترتيبهم حسب الأقطار كتابنا قراءة الإمام نافع عند المغاربة: 60-3/6.
²⁴² — يرجع إلى تفصيل ذلك في المجلد الأول ابتداء من ص 151 من طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.
²⁴³ — مقدمة ابن خلدون: 449.

ومن المعلوم أن المدينة المنورة دار الهجرة ومتزل الوحي الإلهي ومعدن الشريعة والسنة ونبوع العلم الذي استمدت منه سائر الأودية والمذاهب²⁴⁴، ومن ثم فقد قر في النفوس من تعظيمها والحنين إليها ما ظل يعتلج عند أهل الإيمان، ويحدوهم إلى الوفادة إليها عبر العصور والأزمان.

وقد نشأ عن هذا التوقير للمدينة المنورة -لاسيما عند المغاربة- توقير لجميع ما ينسب إليها، أو ينقل عن أهلها من أمور الدين وشعائره وأغاط السير والسلوك، ومن هنا جاء اعتمادهم لقراءة إمامها في القراءة وفقه إمامها ورواية كتابه واعتماد مذهبهما واختيارهما استحابة لهذا التوقير والتقدير، إذ كان مالك -رحمه الله- يقول كما بعث بذلك إلى صاحبه الفقيه الليث بن سعد في رسالته المشهورة إليه:

«فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحل الحلال، وحرم الحرام... فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به، لم أر لأحد خلافه للأثر الذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها»²⁴⁵. ولا يخفى أن هذه الخاصية التي لأهل المدينة في هذا الشأن كما تسري على ميدان السنة والآثار كما بينه مالك في قوله، تسري على القراءة من باب أولى وأحرى، ولذلك كان مالك يرى قراءة نافع سنة أهل المدينة.

ثالثا: العلاقة الوثقى بين نافع ومالك أو بين القراءة والمصنوع

ولقد زاد في رسوخ أثر العاملين السالفين قيام هذه العلاقة الحميمة الوثقى بين نافع ومالك لأزيد من ستين سنة، أولا: بحكم وجودهما معا في الزمان والمكان، وثانيا: من حيث الاشتراك في المسار العلمي والأخذ عن نفس الشيوخ بالروضة الشريفة والحرم النبوي، وثالثا: من حيث الاهتمام برواية الحديث والسير والآثار، ورابعا: وهو الأعرق أثرا وهو ما سميناه بالتدبيح في الرواية، وقد نوهنا به فيما تقدم، ونزيده هاهنا تفصيلا وبيانا.

لقد رأينا من جهة مالك أنه تتلمذ كما جاء في بعض الروايات -وهو طفل في الكتاب- على نافع بن أبي نعيم بوادي العقيق، ثم وقفنا مع الرواية الموثوقة التي أثبتتها الجميع من طريق ابن أخته وابن عمه إسماعيل بن أبي أويس قال: قال لي مالك: قرأت على نافع بن أبي نعيم²⁴⁶، وقال ابن الجزري: «روى القراءة عنه عرضا وسماعا»²⁴⁷، وقدمنا أن كل ذلك عندنا يدل على طول الصحبة في الأخذ وأنه لم يكن عرضا في أسبوع أو شهر، لاسيما مع اعتبار ما كانت عليه حلقة نافع في المسجد النبوي من اكتظاظ بفعل ازدحام المعارضين من أهل المدينة والآفاق،

²⁴⁴ من كلام عياض في ترتيب المدارك: 4/1.

²⁴⁵ ترتيب المدارك: 34-41/1.

²⁴⁶ ذكره ابن الباذش في الأفتاح: 55/1 والقاضي عياض في ترتيب المدارك: 272/2 وكذا: 81/1 وجمال القراء للسخاوي: 245/2 وابن عبد الوهاب في كفاية الطالب كما ذكره المنثوري في شرح الدرر اللوامع: 44/1، وابن فرحون في الديباج المذهب: 29 وانظر معرفة القراء الكبار: 89/1 وسير أعلام النبلاء: 338/2 وغاية النهاية: 330-331.

²⁴⁷ غاية النهاية: 330/2-331 ترجمة 3718.

وحتى كان الحصول على الدور فيه يحتاج إلى الاحتيال وشفاعة الشفعاء، وقد قدمنا قول معلى بن دحية: «سافرت بكتاب الليث إلى نافع لأقرأ عليه»²⁴⁸، فقد احتاج في الوصول إلى غرضه إلى رسالة توصية واستشفاع لولا الازدحام كان في غنية عنها.

روى أبو القاسم الهدلي في "الكامل" قال: «قال أبو يعقوب الأزرق:

لما دخل ورش المدينة - وكان نافع يؤخذ عليه السبق بالليل - فنام في مسجد رسول الله ﷺ فلما أتى نافع عند الأذان وصلى ركعتين، أخذ ورش السبق، فقرأ عشراً فسمع المهاجرون والأنصار قراءته فمازال كل واحد يهبه سبقه حتى قرأ مائة آية، فقدم على أصحاب نافع بكاملهم»²⁴⁹.

وفي رواية عند أبي عمرو الداني بسنده إلى ورش قال:

«خرجت من مصر إلى المدينة لأقرأ على نافع، فإذا هو لا تطاق القراءة عليه من كثرة أبناء المهاجرين والأنصار، وإذا هو يقرئ ثلاثين آية. فجلست خلف الحلقة، وقلت لإنسان: من أكبر الناس عند نافع؟ فقال لي: كبير الجعفرين²⁵⁰، فقلت: فكيف لي به؟ قال: أنا أجيئك معك إلى منزله. وجئنا إلى منزله، فخرج علينا شيخ تام من الرجال، فقلت: أنا من مصر جئت لأقرأ على نافع فلم أصل إليه، وأخبرت أنك من أصدق الناس له، وأنا أريد أن تكون الوسيلة إليه، فقال: نعم وكرامة، قال: وأخذ طيلسانه ومضى معنا إلى نافع، وكان لنافع كنيستان: أبو رؤيم وأبو عبد الله، فبأيهما دعي أجاب، فقال له الجعفري: هذا وسلي إليك. وجاء من مصر ليس معه تجارة ولا جاء لحج، وإنما جاء للقراءة خاصة، فقال: ترى ما ألقى من أبناء المهاجرين والأنصار، فقال صديقه: تحتال له، فقال لي نافع: أيمكنك أن تبيت في المسجد؟ قلت: نعم! فبت في المسجد، فلما كان الفجر تقاطر الناس، ثم قالوا: قد جاء نافع، فلما أن قعد قال: ما فعل الغريب؟ قال: وكنت مع ذلك حسن الصوت مداداً به، فاستفتحت، فملاً صوتي مسجد رسول الله ﷺ فقرأت ثلاثين آية، فأشار بيده أن أسكت، فسكت، فقام إليه شاب من الحلقة فقال: يا معلم أعزك الله، نحن معك، وهذا رجل غريب، وإنما رحل للقراءة عليك، وإني أحببت أن أهب له عشراً وأقتصر على عشرين، فقال نعم وكرامة، فقرأت عشراً فقام إليه آخر، فقال: قد تفضل عليه ابن كبير المهاجرين، وأنت تعلم أي ابن كبير الأنصار، فأحب أن يكون لي أيضاً مثل ما له من الثواب. قال لي: اقرأ، فلما قرأت خمسين آية قعدت حتى لم يبقى واحد ممن له قراءة إلا قال لي: اقرأ فأقرأني خمسين، فمازلت أقرأ عليه خمسين خمسين حتى قرأت عليه ختمات قبل أن أخرج من المدينة»²⁵¹، فهكذا كان أمر الحصول على فرصة العرض على نافع

²⁴⁸ — معرفة القراء الكبار: 132/1-133 والمعارب: 105/12 وهو في طبقات القراء للداني كما نقله ابن الجزري في غاية النهاية: 304/2.

²⁴⁹ — الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها للهدلي: لوحة 18.

²⁵⁰ — لعله يعني بكبير الجعفرين إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري أحد كبار الرواة للقراءة عن نافع، وقراءته معروفة ضمن طرق قراءة نافع في العشر الصغير، وهي مذكورة بتفصيل في كتاب التعريف في اختلاف الرواة من نافع لأبي عمرو الداني، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور التهامي الراعي، وأيضاً بتحقيق الشيخ محمد السحاني في جزء صغير.

²⁵¹ — نقله ياقوت الحموي في معجم الأدباء: 116/2 وهو ينحو هذا اللفظ عند الذهبي في معرفة القراء: 127/1-128.

يحتاج إلى مثل هذا الاستشفاع والاحتيايل والتنافس في التنازل للغرباء عن الأسباق إشفاقا عليهم من طول الانتظار، فهل كان مالك غداة عرضه للقراءة على نافع قد عانى من هذا الأمر مثل هذه المعاناة، أم كان هو أيضا يتوسل بمثل تلك الوسائل للحصول على الدور؟ لا نملك على ذلك الجواب الشافي، ولكننا نستشف من وقائع العرض كما رأينا صورة منها في رحلة ورش إليه، ما يمكن أن تتمثل من خلاله وجود مالك في حلقة نافع في طور شبابه على الأقل وهو يسارع إلى أخذ السبق قبل غيره، إما بالمبيت في المسجد، وإما بالتبكير إلى المجلس قبل غيره، وإما بغير ذلك مما يحصل به على حصة دائمة من العرض يصل بها إلى مراده من الرواية عن نافع.

رواية مالك عن نافع ورواية بعض المغاربة لقراءة نافع من طريقه

ولقد يتبادر إلى الذهن أن مالكا إنما كان يقرأ في مصحفه بين يدي شيخه نافع كلها حصل على العرض وينتهي كل شيء، ولكننا نلمس من عناية العلماء بذكر عرضه على نافع ما يدلنا على أنه قد ضبط عنه اختياره في القراءة بحكم طول صحبته له، ومعرفته بقراءته وخصائصها الأدائية التي كان يعتبرها سنة أهل المدينة، إذ لا يتصور في مجرى العادة أن يعتبر قراءة نافع سنة ثم يقرأ بخلافها في الأداء.

ومع هذا فيمكن القول إنه كان صاحب اختيار في القراءة لا يخرج في جملة عن اختيارات نافع في الأداء، يدل على ذلك ما جاء في ترجمته عند أبي عمرو الداني في الطبقات حيث ترجم له وقال: «أخذ القراءة عرضا» ولم يكتف بأن يقول «قرأ القرآن» لأن العرض يتضمن الأخذ برواية معينة، كما أنه جاء في ترجمته: «روى القراءة عنه أبو عمرو الأوزاعي ويحيى بن سعيد والحلواني في قول الهذلي»²⁵² وهذا يفيد أن له اختيارا في القراءة رواه عنه الأوزاعي وإمام أهل الشام في الفقه، وغيره كيجي بن سعيد الأنصاري، وأحمد بن يزيد الحلواني في قول الهذلي. وهذا الاختيار الذي عرضه مالك على نافع ورواه عنه الرواة كان معروفا، لكن لم تتواتر الرواية به فيما يظهر لعدم تفرغ مالك لهذا الشأن، ولوجود مثل نافع معه بالمدينة، كما يظهر أن هذا الاختيار لم يعد له وجود في المدينة بعد أن رواه من رواه عنه، إذ لو كان قد بقي محفوظا عند تلامذته لاشتهر وانتشر، ولكن لأهل المغرب اختصاص به لشدة حرصهم على نقل غرائب الروايات، ولا سيما حين تتعلق بإمام مذهبهم ومتبوعهم الإمام مالك بن أنس، فقد رووا عن مالك الشاذة والفاذة، واستوعبوا ما روي عنه في التفسير²⁵³ كما ألفوا في مناقبه وشيوخه وأصحابه²⁵⁴.

²⁵² — غاية النهاية: 35/2—36 ترجمة 2642.

²⁵³ — للشيخ مكي بن أبي طالب القيرواني كتاب فيما روى عن مالك في التفسير، ولأبي محمد بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة كتاب مشهور في ذلك، ومالك جزء في التفسير برواية خالد بن عبد الرحمن المخزومي يرويه القاضي عياض بسنده إليه. انظر ترتيب المدارك: 207/1 وسير أعلام النبلاء للذهبي 89/8 ترجمة 10 وكذا: 95/8.

²⁵⁴ — أحصى القاضي عياض وسمى جملة من العلماء ممن ألفوا في فضائل مالك ومناقبه وأخباره إلى زمنه في صدر المائة السادسة عند تأليف كتابه ترتيب المدارك فبلغ هم أربعة وثلاثين مؤلفا، انظر ترتيب المدارك: 8/1—12 وانظر في كثرة من ألف في مناقبه قول أبي عمر بن عبد البر في أول كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 75/1.

ولو وقعت روايته للقراءة عن نافع لكبار الحفاظ من قرائهم كأبي عمرو الداني وأبي محمد مكّي وأبي عبد الله بن شريح لسارعوا إلى حفظها وتدوينها، مما يدل على أنها لم تعد معروفة في مصر والشام والعراق والحجاز، أو على الأقل يضمن بها من كانت عنده من أئمة القراء وخواصهم، إلى أن رحل من المغاربة من قام بالتنقيب عنها في أقاصي البلدان.

ولقد ظل الحفاظ من قراء المشرق يدرجونها مع ذلك في أسانيدهم ضمن ما قرأوا به من المؤلفات الجامعة إلى أن رحل من أهل المغرب فقراً بها مع غيرها من روايات أهل المدينة الإمام أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي البسكري²⁵⁵ (ت465هـ) الذي «طاف البلاد في طلب القراءات» قال ابن الجزري: «فلا أعلم أحدا في هذه الأمة رحل في طلب القراءات رحلته، ولا لقي من لقي من الشيوخ، قال في كتابه "الكامل":

«فجملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمس وستون شيخا، من آخر المغرب إلى باب فرغانة يمينا وشمالا وجبالا وبحرا، ولو علمت أحدا تقدم علي في هذه الطبقة في جميع بلاد الإسلام لقصدته. قال: وألفت هذا الكتاب فجعلته جامعا للطرق المتلوة والقراءات المعروفة، ونسخت به مصنفاتي كالوجيز والهادي، قال ابن الجزري: «كذا ترى هم السادات في الطلب، وكانت رحلته سنة خمس وعشرين وأربعمائة وبعدها. قال: وكان قد قرره نظام الدين في مدرسته بنيسابور، فقعد سنين وأفاد، وكان مقدما في النحو والصرف وعلل القراءات»²⁵⁶. وبين يدي الآن صورة عن مخطوطة كتاب "الكامل" الموجودة بمكتبة الأزهر بمصر، وقد وقفت في قسم الأسانيد منها في أول الكتاب على ما ذكره الحافظ بن الجزري في ترجمته، وتقدمه إليه الحافظ الذهبي الذي وصفه بـ «المقرئ الجوال، أحد من طرق الدنيا في طلب القراءات»²⁵⁷ وقد استهل الهذلي ذكره لما لك ضمن القراء ممن لم ينسب إلى بلد بعينها²⁵⁸ في سياق تقسيمه لرواة القراءات.

كما وقفت في إسناده لقراءات أهل المدينة على ذكر لرواية الإمام مالك ضمن روايات المدنيين²⁵⁹، غير أني فيما تقصيته في كتابه في الأصول والفرش لم أقف له على ذكر للإمام مالك في مسائل الوفاق والخلاف بين القراء والرواة، ولو أتيح لنا أن نقف على بعض ملامح اختياره من خلال ما قرأ به، لعرفنا مزيدا من التأكيد على العلاقة الوثقى في هذا الشأن بين قراءته وقراءة شيخه، ولكننا مع ما نراه من تصور قراءة التلميذ موافقة لقراءة الشيخ، فإننا نرى مع ذلك ضرورة اختصاص التلميذ في عرضه على الشيخ باختياره مما يزيكه رواية بعرضه على شيخه وإقراره على القراءة به، وذلك شأن كل ما ينسب إلى الرواة من أوجه الخلاف، فإن

²⁵⁵ — نسبة إلى بلدة بسكرة بالجزائر، وقد تصحفت نسبته من البسكري بالباء والسين إلى الإشكري بالياء المثناة والشين كما في ترجمته في غاية النهاية: 397/2 ترجمة 3929.

²⁵⁶ — غاية النهاية: 397/2—401 ترجمة 3929 وانظر النشر في القراءات العشر: 35/1.

²⁵⁷ — معرفة القراء الكبار للذهبي: 346/1—349 الطبقة 11 رقم الترجمة 8.

²⁵⁸ — كتاب الكامل (مخطوط) ورقة 40.

²⁵⁹ — الكامل ورقة 49.

مرجه في الحقيقة إلى استيعاب وجوه قراءة شيوخهم واختيارهم لبعضها وعرضهم لها عليهم، وهذا تأويل الاختلاف بين الروايات عن القارئ الواحد، كما وقع مثلاً بين رواية ورش عن نافع ورواية قالون عنه، إذ كان من منهج الإمام نافع كما قدمنا أن كل من قرأ عليه لا يرد عليه شيئاً فيما سمع حتى يقول له الذي يقرأ عليه: أريد قراءتك التي تقرأ بها في خاصة نفسك فيقرئه بها، ولهذا كثر عنه الاختلاف في القراءة»²⁶⁰.

وبهذا أحاب الشيخ أبو محمد مكي بن أبي طالب عن الخلاف الواسع الملحوظ بين ورش وباقي الرواة عن نافع، ومنهم قالون الذي قال مكي إنه «اختلف معه في أكثر من ثلاثة آلاف حرف من قطع وهمز وتخفيف وإدغام وشبهه... قال: وإنما ذلك لأن ورشاً قرأ عليه بما تعلم في بلده، فوافق ذلك رواية قرأها نافع على بعض أئمتته، فتركه على ذلك، وكذلك ما قرأ عليه قالون وغيره، وكذلك الجواب عن اختلاف الرواة عن القراء»²⁶¹.

فرواية مالك للقراءة وعرضه لها على نافع هما من هذا القبيل، وإن كنا لم نقف لهما على أمثلة كافية تشفي الغليل.

بعض ما وقفنا عليه من ملامح اختيار مالك في القراءة:

كراهيته للنبر في القراءة، والمراد به: المبالغة في النطق بالهمزة الساكنة في مثل يأمر ويؤثرون والذئب. وتخفيف الهمز لغة قريش، كما جاء عن خلف بن هشام قال: «وقريش لا همز، ليس الهمز من لغتها، وإنما همزت بلغة القراء غير قريش من العرب»²⁶²، وروى ابن مجاهد بسنده عن قالون قال: «كان أهل المدينة لا يهمزون حتى همز ابن جندب فهمزوا»²⁶³ (مستمزون). قلت: وإليه أشار الحافظ أبو عمرو الداني في الأرجوزة المنبهة بقوله:

والقريشيون وأهل يثرباً	لا يهمزون ما خلا ابن جندباً
فإنه همز فاقصدى به	قراؤهم والجل من أصحابه
ذكر ذاك عنهم قالون	عيسى بن مينا الثقة المأمون ²⁶⁴

والمراد بابن جندب: مسلم بن جندب الهذلي المقرئ أحد شيوخ الإمام نافع بن أبي نعيم، عرض القرآن على عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وعرض عليه نافع، وروى عن أبي هريرة وحكيم بن حزام وابن عمر، وهو الذي أدب عمر بن عبد العزيز، وولي القضاء لبعض أمراء بني أمية بالمدينة، وكان من فصحاء أهل زمانه، وقال فيه عمر بن عبد العزيز: «من سره أن يقرأ القرآن غصاً، فليقرأه على قراءة مسلم بن جندب، وكان يقص»²⁶⁵ بالمدينة»²⁶⁶.

²⁶⁰ — شرح الإمام الجصاصي على الدرر اللوامع: ورقة 7 مخطوط بمخزاة ابن يوسف بمراكش برقم 105.

²⁶¹ — كتاب الإبانة عن معاني القراءات لمكي بن أبي طالب: 84—85.

²⁶² — نقله ابن الأنباري في كتابه إيضاح الوقف والابتداء: 164/1 وكذا في 293/1.

²⁶³ — السبعة في القراءات: 60، ومعرفة القراء الكبار للذهبي: 66/1 وقامه: «فهمزوا مستهزون ويستهزئ بهم»

²⁶⁴ — الأرجوزة المنبهة للداني: 237 الأبيات: 252—254.

²⁶⁵ — يقص: يعقد المجلس للقصص والتذكير في المسجد بتكليف من الأمراء، ولنافع رواية عنه في تفسير حروف من القرآن

انظر كتابنا: قراءة الإمام نافع عند المغاربة: 262/1—265.

²⁶⁶ — غاية النهاية: 297/2، وانظر تاريخ المدينة المنورة لعمر بن شبه النمري: 14/1 والبيان والتبيين للجاحظ: 367/1

فابن جندب من هذيل قد أدخل الهمز في قراءته على قراءة المدنيين، وقد ذكر أبو زكرياء الفراء أن العرب عموماً لا تنطق بهمزة ساكنة، إلا بنو تميم فإنهم يهملون، فيقولون: الذئب والكأس والرأس»²⁶⁷.

وإلى هذه الخصيصة أيضاً أشار الشاعر الحكيم ذو الحيسين أبو العلاء المعري في "رسالة الإغريض" في قوله مخاطباً للوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي: «لأمدن صوتي بتلك الآلاء، مد الكوفي صوته في (هؤلاء) وأخفف عن حضرة سيدنا الوزير الرئيس، تخفيف المدني ما قدر عليه من النبر»²⁶⁸.

ويظهر أن الإمام نافعاً لم يكن يمانع في رواية الهمز كما نجد عنها في روايات قالون وطرق العشر النافعية²⁶⁹، إلا أن ورشاً قد اختص في الرواية عنه برواية الإبدال في كل همزة ساكنة في مقابل فاء الكلمة نحو: «تأمرون» و«ياكلون» و«يومنون» و«الموتفكات» وكذلك في الهمزة المحركة بعد الضم في فاء الكلمة نحو «يؤده إليك» و«يؤخرهم» و«مؤذن» و«يؤاخذ» وأبدل مما فيه الهمزة الساكنة في عين الكلمة كلمات «الذئب» في ألفاظه الواردة في ثلاثة مواضع من سورة يوسف، و«يا» و«وبير معطلة» في سورة الحج، ولفظ «بيس» حيثما جاء في القرآن»²⁷⁰. وقد أشار إلى هذه الخصوصية عند ورش أبو الحسن بري في قوله:

أبدل ورش كل فاء سكنت	وبعد همز للجميع أبدلت
وحقق الايوا لما تدريه	من ثقل البدلة تنويه
وإن أت مفتوحة أبدلها	واوا إذا ما الضم جاء قبلها
والعين واللام ²⁷¹ فلا تبدلها	لنافع إلا لدى بيس بما ²⁷²
وأبدل الذئب وبير بيسا	ورش ورعيا بادغام عيسى ²⁷³

فهذا مذهب ورش في إبدال الهمزة وتجنب النبر في الهمزة الساكنة في المواضع التي ذكرناها، وفيها يتجلى أثر الالتقاء ما بين القراءة والمذهب. فقد وقفت على مصداق هذا مما يدل على أن مذهب ورش موافق تماماً لمذهب مالك في قراءته، وذلك في جواب عن فتوى أجاب بها الإمام ابن رشد القرطبي (الجد) (ت520هـ) فقال: «وأما ما سألت عنه مما يقع في كتب المفسرين والمقرئين من تحسين بعض القراءات واختيارها على بعض، لكونها أظهر من جهة الإعراب، أو أصح في النقل، أو أيسر في اللفظ، فلا ينكر ذلك، كرواية ورش التي اختارها الشيوخ المتقدمون عندنا، فكان الإمام في الجامع لا يقرأ إلا بها، لما فيها من تسهيل

²⁶⁷ — نقله ابن الأثير في الإيضاح: 166/1.

²⁶⁸ — نقله القلقشندي في كتاب صبح الأعشى: 209/4.

²⁶⁹ — هي المعروفة بالمغرب باسم العشر الصغير.

²⁷⁰ — انظر مذهب ورش في ذلك في باب الهمزة المفردة من كتب القراءات كالتيسير: 34-35 والإقناع: 412/1.

²⁷¹ — يعني ما يقابل في الوزن الصرفي عين الكلمة مثل الرأس وكأسا وما يقابل لهما نحو إن يشأ وتسوكم.

²⁷² — يعني (بعدد بيس بما كانوا يفسقون) في سورة الأعراف، انظر الإقناع: 412/1.

²⁷³ — عيسى: هو ابن مينا المشهور بقالون الراوي الثاني لنافع، انظر شرح هذه الأبيات في القصد النافع للخراز: 187-193.

الهمزات وترك تحقيقها في جميع المواضع، وقد تؤول ذلك فيما روي عن مالك من كراهة النبر²⁷⁴ في القراءة والصلاة²⁷⁵.

هكذا يبدو في هذا التخريج كما يبدو في الفتوى كيف ساد عند المغاربة الوعي بهذه العلاقة الوثيقة بين القراءة المعتمدة عندهم، وبين المذهب الرسمي في الفقه والعمل اليومي، وفيه الإشارة إلى مذهب ورش في تسهيل الهمز بأنواعه عنده، وإلى مذهب مالك المذكور في كراهة النبر، فقد روى الرواة عن مالك أنه سئل عن النبر في قراءة القرآن في الصلاة؟ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به²⁷⁶.

رواية نافع عن مالك وسند المغاربة في الفقه المالكي من طريقه:

وكما كان لمالك شأن مذكور في ميدان القراءة، فقد كان لنافع بن أبي نعيم شأنه في ميدان الرواية العلمية، أو العلوم الشرعية بصفة عامة، وخاصة في رواية الآثار، ومن ثم فقد عده المؤلفون في التعديل والتجريح في عداد رواة الحديث وقوموا روايته فيه، فوثقه يحيى بن معين، ولينه أحمد بن حنبل، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال الذهبي بعد نقله ما تقدم: قال ابن عدي: النافع عن الأعرج -وهو عبد الرحمن بن هرمز- نسخة مائة حديث رواها جعفر بن محمد الرازي عن سعيد بن هاشم عنه، وله نسخة أخرى أكثر من مائة حديث عن أبي الزناد عن الأعرج، رواها ابن أبي فديك عنه، وله في التفاريق قدر خمسين حديثاً أيضاً، ولم أر له شيئاً منكراً، وأرجو أنه لا بأس به²⁷⁷، قلت: وقد جمعت في ترجمته كثيراً من رواياته عن شيوخه في القراءة مما يرجع إلى اللغة والأدب والأخبار²⁷⁸، وهو وإن لم يكن من فرسان الحديث كما قال عنه الحافظ الذهبي في "سير النبلاء"²⁷⁹، فإنه كان إمام القراءة في المدينة غير منازع،

كما يقول الذهبي: «رأس في حياة مشايخه، وقد حدث أيضاً عن نافع مولى ابن عمر والأعرج وعامر بن عبد الله بن الزبير وأبي الزناد»²⁸⁰.

وقد وقفت له على كتاب جمع فيه بعض حديثه، ونشر بعنوان: "جزء فيه أحاديث نافع بن أبي نعيم" للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن إبراهيم المقرئ (285-381هـ) بتحقيق أبي الفضل الجويني الأثري ونشر دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى: 1411هـ-1991م، وهو

²⁷⁴ -النبر: الهمز، وقد جعله أبو عمرو الداني مرادفاً له فقال في الأرجوزة المنبهة: 236 الأبيات رقم 843-846.

والهمز والنبر هما لقبان
وقال أهل العلم بالحروف
للهمز، والهمز أشد منه
لواحد بذاك يعلمان
النبر تعبير عن التخفيف
والأول الصحيح فالزمنه

²⁷⁵ - كتاب مسائل ابن رشد: 974/2-975.

²⁷⁶ - انظر الجامع لأحكام القرآن الإمام القرطبي: 10/1.

²⁷⁷ - انظر معرفة القراء الكبار للذهبي: 91/1-92.

²⁷⁸ - انظر كتابنا "قراءة الإمام نافع عند المغاربة" 347/1-380.

²⁷⁹ - سير النبلاء: 337/7 ترجمة 121.

²⁸⁰ - سير النبلاء: 337/7.

مصدر برواية الإمام أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني بسنده إلى محمد بن أبي فديك قال: حدثنا نافع بن أبي نعيم القارئ عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته ثملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر بها فأحرقت بالنار، فأوحى الله -عز وجل- إليه: فهلا واحدة»²⁸¹.

ويظهر من حاله أنه توج رواياته هذه أخيراً بالرواية عن مالك، فحقق ذلك المعنى الذي جعلناه في العنوان مما جمع فيه ما بين التدبيح والتسويج، وكأنه استشعر الحاجة إلى استكمال إمامته بالرواية عن إمام أهل المدينة في الفقه، وإذا كان قد قيل إن مالكا «ما جلس إلى شيخ له في علم من العلوم إلا عاد شيخه فجلس إليه فيه، إلا نافع بن أبي نعيم»²⁸²، فإن المراد أنه لم يجلس إليه في علم القراءات لإمامته فيها، ولكن ذلك لم يمنعه من التلمذ عليه في رواية الحديث والأثر، مع أنه مشارك له في كثير من كبار شيوخه في الرواية كنافع مولى بن عمر، وعبد الرحمن بن هرمز، وزيد بن أسلم. وأبي الزناد عبد الله بن ذكوان، وابن شهاب الزهري، ويزيد بن رمان، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وصفوان بن سليم.²⁸³

وقد روى أبو بكر بن الأنباري في "الإيضاح" بسنده عن الأصمعي قال: حدثنا نافع -يعني بن أبي نعيم- قال: جلست إلى نافع مولى عبد الله بن عمر ومالك من الصبيان»²⁸⁴.

وروى ابن سعد في "الطبقات" قال: أخبرنا محمد بن عمر الواقدي قال: حدثني نافع بن أبي نعيم وإسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، وأبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي فروة قالوا: كان كتاب نافع الذي سمع من عبد الله بن عمر في صحيفة، كنا نقرأها عليه، فنقول: يا أبا عبد الله، إنا قد قرأنا عليك، فنقول: حدثنا نافع؟ فقال: نعم»²⁸⁵.

وروايات نافع بن أبي نعيم عن شيوخ مالك كثيرة جمعت منها كثيرا لا يتسع المجال لإيرادها²⁸⁶، وقد توجهنا بالرواية عن مالك أيضا.

فقد ذكر العلماء أنه سمع منه الحديث، كما روى عنه الموطأ، وهو كتابه في الحديث والآثار²⁸⁷، ولولوع المغاربة برواية غريب الروايات عن الأئمة كما سبق القول، فقد حرصوا على رواية فقه المذهب عن الإمام مالك بأسانيدهم المتصلة إليه، ومع وفرة الطرق التي وصل إليهم منها هذا الفقه، فقد اهتموا برواية الفقه المالكي من طريق إمامهم في القراءة نافع بن أبي

²⁸¹ — جزء فيه أحاديث نافع بن أبي نعيم (19-21) وانظر تخرج البخاري ومسلم له وجماعة كما ذكره محققه بامش الصفحة 21.

²⁸² — نقله السيوطي. انظر ندوة الإمام مالك: 127/1.

²⁸³ — انظر كتاب تجريد التمهيد، أو القصص لحديث الموطأ وشيوخ: الإمام مالك لأبي عمر بن عبد البر، نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان، وكتاب أسماء شيوخ الإمام مالك بن أنس لابن خلدون الأندلسي تحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب نشر مكتبة الثقافة الدينية: مصر، وكتابنا "قراءة الإمام نافع عند المغاربة": 275-265/1.

²⁸⁴ — إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري: 111/1.

²⁸⁵ — الطبقات الكبرى لابن سعد: القسم المتم لتابعي أهل المدينة: 143.

²⁸⁶ — انظر طرفا من ذلك في كتابنا "قراءة الإمام نافع عند المغاربة" 275-265/1.

²⁸⁷ — انظر ذلك في ترتيب المدارك ليعاض: 81/1، وكذا: 172/2، وفي الديباج المذهب لابن فرحون: 29.

نعيم تأكيداً لهذه الوشيجة المتينة والآصرة العلمية المكيّة، التي ربطت بين الإمامين كما نوهنا بها فيما وصفناه بالتدبيح والتتويج في صدر هذا الموضوع.
وقد أدرج العلامة ابن مخلوف التونسي هذا السند النافعي ضمن الأسانيد المعتمدة عند المالكية في المغرب والأندلس، ووصله من طريق إسماعيل القاضي عن قالون عن نافع المقرئ عن مالك²⁸⁸.

وهذا يدل على الالتحام بين المذهبين القرآني والفقهية عند المغاربة، كما يزيد في التأكيد على العلاقة الوثقى التي كانت بين الإمامين، واستمرت من بعدهما عند الأتباع بمجسدة عتيدة في مثل هذا الاهتمام المتبادل، وذلك ما سنقف على تحلياته في العامل التالي من عوامل اعتماد قراءة نافع عند المغاربة قراءة رسمية.

رابعاً: النقل المزدوج للقراءة والمذهب معا على أيدي الرواد الأولين:

وإلى جانب ما قدمنا من القول في المشيخة المتبادلة بين نافع ومالك، وما نشأ عنها واستتبعته من آثار، فقد ارتبط عند المغاربة إجلال صاحب القراءة بإجلال صاحب المذهب والعكس بالعكس، وسرى منه هذا التقدير المزدوج للإمامين في الحرص على الأخذ بمذهبيهما معا في القراءة والفقه المذهبي معتبرين كلا منهما مكملًا للآخر، لاسيما مع إحالة صاحب المذهب على قراءة شيخه واعتباره إياها سنة، فهذه القراءة عند المالكية قراءة مالكية أيضا، إذ هي قراءة إمام مذهبهم، فكل مخالفة عنها إلى غيرها كانوا يرونها مخالفة لتوجيه إمامهم في الجملة، ولهذا نجد المترجمين منهم للإمام نافع كثيرا ما يذكرون في التنويه بقدره ورفيع منزلته بذكر قراءة مالك عليه، كقول عبد الله بن وهب من فقهاء مصر في التنويه به: «فكيف برجل قرأ عليه مالك؟»²⁸⁹.

وكقول أبي وكيل ميمون مولى الفخار في التعليل لاختيار قراءة نافع ونظمه فيها:

وها أنا أروم بعد ما ذكر	قراءة العدل الإمام مشتهر
أبي رؤيم المسدي نسي	ذي الحمد نافع لأمر وجبا
إذ هي سنة وأخذ مالك	بحرف نافع، فهل من سالك ²⁹⁰

وهكذا التحمت القراءة بالمذهب في أذهانهم منذ البداية، فكان الرواد الذين دخلوا بالقراءة رواية عن نافع هم في الوقت ذاته هم الذين دخلوا برواية الفقه عن مالك ورواية الموطأ عنه كما تقدم لنا عند الغازي بن قيس القرطبي.

وكذلك وقع بالنسبة لدخول رواية ورش إلى الأندلس والمغرب، فقد كان مذهب مالك قد ساد في مصر وانتشر فيها على أيدي تلامذته، وهم في أكثرهم من رواة قراءة نافع كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن ميسرة وعبد الرحمن بن القاسم العتقي صاحب المدونة ومعلّى بن دحية وأبي يحيى زكريا الوقار وأبي سعيد ورش، وكان ورش أوسعهم تأثيرا في بلده لتفرغه

²⁸⁸ — شجرة النور الزكية لابن مخلوف: 473-474.

²⁸⁹ — نقله مسعود جوع في الروض الجامع في شرح الدرر اللوامع (مخطوط).

²⁹⁰ — تحفة المنافع في أصل مقرا الإمام نافع لأبي وكيل ميمون بن مساعد المصمودي (ت 816هـ) (مخطوط).

للقراءة وحدها، فكانت الرحلة إليه بعد موت نافع، وكانت روايته لذلك أوسع انتشارا في القيروان وإفريقية والسودان بفعل الجوار، ثم في باقي المغرب والأندلس بفعل الرحلة إلى الحج، أو الرحلة العلمية المحضة.

وعلى العموم فقد تزامنت حركة ازدهار قراءة نافع في هذه المناطق مع حركة ازدهار مذهب مالك فيها.

ثم كان لظهور المدرسة المالكية في القيروان في زمن سحنون في صدر المائة الثالثة ما زاد في توطيد دعائم هذا الالتحام، وقد تكامل أمر مدرسته مع أثر مدرسة الغازي بن قيس راوي الموطأ للأندلسيين، ومدرسة يحيى بن يحيى الليثي قطب المدرسة المالكية الناشئة في الأندلس، وراوي الموطأ عن مالك والقراءة عن نافع.

ثم زاد الالتحام بين رواية القراء ورواية الفقهاء حينما أصبحت الروايتان معا تجتمعان في شخص واحد.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تأتي وتحقق في شخص أبي عبد الله محمد بن وضاح القرطبي (ت287هـ) بالنسبة للروايتين. رحل ابن وضاح من قرطبة في حياة أبي الأزهر عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم العتقي (ت231هـ)²⁹¹. وكان أبو الأزهر المذكور ولد ابن القاسم صاحب الإمام مالك ومؤلف المدونة على مذهبه كما دوها عنه سحنون، ولابن القاسم أيضا رواية للقراءة عن نافع²⁹². وكان أبو الأزهر -كما يقول الذهبي- أحد الأئمة الأعلام كوالده، حدث عن أبيه، وعن سفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب، وقرأ القرآن وجوده على ورش²⁹³ وقال ابن الجزري: «أخذ القراءة عرضا عن ورش، وله عنه نسخة»²⁹⁴.

أما ابن وضاح المذكور فهو «إمام زاهد ثقة» روى القراءة عن عبد الصمد بن عبد الرحمن عن ورش، وله عنه نسخة، وسمع منه «الاختلاف بين نافع وحمة»²⁹⁵ من تصنيفه، وروى عنه عدد القرآن على عدد المدني الأول، قال الداني: «ومن وقته اعتمد أهل الأندلس على رواية ورش، وصارت عندهم مدونة»²⁹⁶، وكانوا قبل ذلك معتمدين على رواية الغازي بن قيس عن نافع²⁹⁷.

وإلى تأثير الانتماء المذهبي في حدوث هذا التحويل من رواية الغازي إلى رواية ورش يشير الإمام الذهبي بقوله: «ولم كان أبي الأزهر -يعني عبد الصمد، وكونه ولد صاحب المدونة في المذهب المالكي- اعتمد الأندلسيون على قراءة ورش»²⁹⁸ وهو يشير إلى أثر هذا العامل وهو

²⁹¹ — انظر ترجمته في معرفة القراء الكبار: 150/1-151، وغاية النهاية: 389/1-390.

²⁹² — انظر في روايته عن نافع كتاب خلاصة تهذيب الكمال للخزرجي: 233.

²⁹³ — معرفة القراء الكبار: 150/1-151.

²⁹⁴ — غاية النهاية: 389/1.

²⁹⁵ — يعتبر هذا الكتاب أقدم تأليف في الدراسة المقارنة بين قراءات القراء السبعة.

²⁹⁶ — وهذا معنى قوله: وله عنه نسخة، أي: تدوين لروايته عن ورش.

²⁹⁷ — غاية النهاية: 275/1.

²⁹⁸ — معرفة القراء الكبار: 151/1، ومثله للسيوطي في حسن المحاضرة: 207/1.

ما ذكرناه من الانتماء المذهبي في اعتماد هذه الرواية من طريق ابن وضاح عن عبد الصمد ولد صاحب المدونة عن ورش عن نافع.

خامسا: تشجيع السلطة الحاكمة وتدخلها المباشر

وهذا العامل يعتبر كالنتيجة للعامل السابق قبله، وذلك أن أولئك الرواد العائدين من الرحلة ممن مثلنا لهم كانوا في الغالب في آن واحد حملة للقراءة المدنية وفقهاء في المذهب المالكي، فكانت رحلاتهم تلك ومكانتهم من العلم ترشحهم حين العودة إلى اعتلاء المناصب والوظائف المهمة في تلك المناطق، فكان أمرا طبيعيا أن يعملوا حين تولي المهام على تشجيع القراءة التي يقرأون بها والفقه الذي يحملونه على نحو ما أخذوا ذلك في الرحلة من خلال سلطاتهم ونفوذهم عند الأمراء. وقد سجل الإمام أبو محمد بن حزم هذه الالتفاتة الذكية في زمنه في المائة الخامسة فيما يرجع إلى المذهب الفقهي فقال: «مذهبان انتشرا عندنا في أول أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف²⁹⁹ كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى عمل إفريقية³⁰⁰، فكان لا يولي إلا أصحابه المنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى³⁰¹ كان مكينا عند السلطان، مقبول القول في القضاة، وكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائدا في جلالتهم عندهم، وداعيا إلى قبول رأيه لديهم. وكذلك جرى الأمر بإفريقية لما ولي القضاء بها سحنون بن سعيد (ت 240هـ) ثم نشأ الناس على ما انتشر»³⁰².

وهذا التعليل في انتشار المذهب المالكي في الأندلس وإفريقية والمغرب صحيح ومقبول، وصالح أيضا فيما يتعلق بانتشار قراءة نافع تبعا لذلك لما تقدم من استحكام الانتماء بينها وبين المذهب واتصال الوشائج بينهما، لاسيما وأن النظر في شؤون القراءة وإمامة الصلوات في المساجد وغيرها من الوظائف الدينية إنما كان موكولا إلى القضاة، وقد ذكروا أنه كان «من الوظائف التي للقاضي النظر فيها بقرطبة، الإشراف على المساجد والميضأة ونظافة أفتيتها، وكان له تعيين مقرئ الجامع بقرطبة»³⁰³.

ولا شك أن هذه التبعية لهذه الوظائف للقضاة من شأنها أن تؤدي إلى طلب الناس لما يؤهلهم لها كما ذكره ابن حزم، طلب علوم المذهب والقراءة الرسمية للوصول إلى تلك الوظائف، ثم نشأ الناس على ما انتشر واشتهر.

²⁹⁹ — هو يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وأكبر رواة فقه مذهبه ولي القضاء للرشيد العباسي، توفي سنة 182هـ ترجمته في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: 242/14-262.

³⁰⁰ — يعني على عهد إمارة بني الأغلب بالقيروان وإفريقية على الرشيد والأمين والمأمون وما بعده إلى عهد سحنون.

³⁰¹ — هو الليثي المصمودي راوي موطن مالك عنه، توفي سنة 234هـ.

³⁰² — مجموعة رسائل بن حزم، الملحق رقم 13، الجزء الثاني: 229، وجذوة المقتبس للحميدي: 383-384 ترجمة 309.

³⁰³ — انظر موضوع القضاء في قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري محمد عبد الوهاب خلاف: مجلة عالم الفكر: المجلد

16 العدد 4 يناير — فبراير — مارس: 1986م الصفحة 1039-1040.

ولقد بلغ هذا التقليد مداه على يد سحنون بن سعيد التنوخي حين ولي قضاء القيروان بعد روايته للمدونة عن ابن القاسم بمصر واعتلائه لهذا المنصب، وهيمنة مذهب مالك على يده بإفريقية وأعمالها، فتوزع هو وأصحابه المناطق ونشروا فيها مذهب مالك، وكان سحنون منهم بمزلة الرقيب، أو النقيب الذي يسيرهم من عاصمة البلاد القيروان بما يرسمه لهم من خطط، وما يقدمه من توجيهات وتعليمات³⁰⁴.

وقد ألف سحنون أيضا رسالة في «آداب المعلمين» رسم فيها سياسة التعليم الديني، وخص تعليم القرآن فتحدث عن الصفات الواجبة فيمن يتصدى له من المؤمنين.

أما بخصوص القراءة الرسمية فقد قال: «وينبغي أن يعلمهم إعراب القرآن، وذلك لازم له، والشكل والهجاء والخط الحسن والتوقيف والترتيل، ويلزمه ذلك، ويلزمه أن يعلمهم ما علم من القراءة السنية، وهي مقراً نافع، ولا بأس إن أقرأهم لغيره»³⁰⁵.

وهكذا أبان صنيع سحنون عن مبلغ التأثير الذي كان لفقهائ المالكية وزعمائهم في التمهيد لترسيم قراءة نافع عند المغاربة، وإن كان الأمر يبدو في ظاهره لم يأخذ في البداية طابع القسر، وإنما بقي في دائرة الإستحسان، إذ اكتفى بالتعبير المؤدب بلفظ «ويلزمه»³⁰⁶.

ولقد قيل عن سحنون إنه «أخذ بمذهب أهل المدينة في كل شيء»³⁰⁷، وأنه «تأدب بأدب أهل المدينة حتى في العيش»³⁰⁸، فلا بدع أن نرى حرصه على التمكين للقراءة المدنية في بلاده وسائر إيالة قضائه، ولا عجب أيضا في أن يرث عنه هذا الحرص على «المدينة» في كل شيء، ذلك الحشد من الطلاب الذي التفوا عليه منذ عودته من رحلته والذي استطاع به أن يوطد أركان المذهب المدني كما عبر عن ذلك عياض في قوله: «إن إفريقية وما وراءها من المغرب كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك، فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفسو إلى أن جاء سحنون»³⁰⁹ فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين، واستقر المذهب في أصحابه فشاع في تلك الأقطار»³⁰⁹.

304 — من أمثلة ذلك ما جاء في ترجمة صاحبه أبي خالد يحيى بن خالد الفهمي الذي ولي قضاء الزاب بإفريقية، وكتب له سحنون سيرة يعمل عليها ويطلبه بما كان، وله قصيدة في مدح المدينة وعلمائها، ومدح سحنون يمكن الرجوع إليها في ترتيب المدارك: 454/4.

305 — رسالة آداب المعلمين: 102/1.

306 — ترتيب المدارك: 53/4.

307 — رياض النفوس للمالكي: 364/1.

308 — هو عبد السلام بن سعيد التنوخي القيرواني، رحل إلى المشرق في طلب العلم فدخل مصر سنة 178هـ مقتصرًا عليها، ثم عاد إلى بلده، ثم رحل بعد موت مالك بعشر سنين سنة 188هـ فسمع بمصر والمدينة من كبار أصحابه، ومنهم ابن القاسم الذي دون عنه المدونة الكبرى في الفقه المالكي، وعاد إلى إفريقية سنة 191هـ، ولم يلبث أن ذاع صيته فولي القضاء إلى أن توفي سنة 240هـ. انظر ترجمته في طبقات علماء إفريقية لأبي العرب: 101-104، وترتيب المدارك 45/4-104، ورياض النفوس للمالكي: 345/1-375 ترجمة 126، ومعالم الإيمان للدباغ: 77/2.

309 — ترتيب المدارك: 25/1-26.

وقد عبر عن عمارة مسجد القيروان في زمنه بالقرآن وحلق العلم الشاعر القيرواني أبو القاسم الفتراري في قصيدة طويلة نقتطف منها هذه الأبيات:

فهل للقيروان توساكنيها عدل حين يفتخر الفخور
عراق الشر بغداد وهذي عراق الغرب بينهما كثير
ولست أقيست بغدادا تاليها وكيف تقاس بالسنة الشهور

إلى أن يقول:

بما حلق العلوم لها دوي يجاوبها الكتاب المستنير³¹⁰

وفي الجملة فإن سحنونا كما قيل عنه «كان أيمن عالم دخل المغرب، كأن أصحابه مصابيح في كل بلدة، عدُّ له نحو سبعمائة رجل ظهوروا بصحبته، وانتفعوا لمجالسته»³¹¹. وهكذا جرت هذه النقلة في اتجاه مذهب أهل المدينة فقها وقرأها في إفريقية والقيروان في أوائل المائة الثالثة، ثم استمر عطاؤها الذي تجسد أخيرا في ترسيم مذهب مالك وقراءة نافع بصفة نهائية.

وقد تم هذا الترسيم بالنسبة لقراءة نافع بصدر ذلك المنشور القضائي الرسمي عن أحد رجال مدرسة سحنون، وهو القاضي أبو العباس عبد الله بن طالب قاضي القيروان³¹² الذي ذكر أبو عمرو الداني في طبقات القراء والمقرئين أنه في أيام قضائه (267-275هـ)³¹³ أمر محمد بن برغوث³¹⁴ المقرئ بجامع القيروان أن لا يقرئ الناس إلا بحرف نافع³¹⁵ ولا شك أن هذا الأمر كان يكتسي طابع العمومية، ولم يكن مقصورا على إمام جامع القيروان، إذ لا فائدة من إصدار أمر قضائي كهذا إلى مقرئ واحد إلا لأحد الأمرين: إما لكثرة غاشيته من العارضين والمتأدين عليه، وإما لكون الأخذ بقراءة نافع قد غدا من الشيوع والانتشار بحيث اقتضى أن يتدخل القضاء رسميا ليطالب ابن برغوث وأمثاله بالاعتصار على ما اقتصر عليه عامة المؤدبين على التلقين بهذه القراءة وحدها، مع دلالة الخبر على وجود بقية من القراءات المنافسة كانت قد بدأت تنسحب بالتدريج لتترك الميدان للقراءة النافعية.

وعلينا في هذا الصدد أن نضع في الاعتبار هذا التزام بين صدور هذا المنشور القضائي إلى محمد بن برغوث إمام جامع القيروان، وبين دخول أحد فحول قراءة نافع من رواية ورش إليها عاندا من رحلته بعد أن رحل من البيرة بالأندلس وقدم مصر فقرأ على أعلام مدرسته ورش، وأتقن روايته وعرضها بطرقها المشهورة، ويتعلق الأمر بالقارئ الإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن خيرون الألبيري المقرئ، الذي أشار الإمام أبو عبد الله بن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس

³¹⁰ — رياض النفوس: 490/2-493.

³¹¹ — ترتيب المدارك: 74/4.

³¹² — ترجمته في رياض النفوس: 447/1-470 ترجمة 155، وترتيب المدارك: 308/4-331.

³¹³ — انظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي: 115/1-116، وكذا: 117/1-121.

³¹⁴ — هو أبو عبد الله محمد بن برغوث إمام جامع القيروان، قرأ على أبي يحيى زكريا الوقار صاحب الإمام نافع وعرض القراءة عليه، وتوفي سنة 272هـ. انظر ترجمة في غاية النهاية: 104/2 ترجمة 2871.

³¹⁵ — ترتيب المدارك: 313/4.

في سياق ذكر الذين دخلوا بقراءة نافع إلى إفريقية حيث ذكر أنه «قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة، ولم يكن يقرأ لنافع إلا خواص من الناس»³¹⁶. وهكذا تضافرت العوامل في توثيق هذه الوشيحة بين حملة الفقه والقراءة على مذهب أهل المدينة، فكان من نتائجها حدوث هذا الالتحام الذي ظل يتفاعل ويزداد عبر العصور والأجيال.

سادس: الرغبة في الاستقلال عن المشرق

وهذا العامل منشؤه من الشعور بالحاجة إلى تأمين الجانب السياسي والفكري من النزاعات والمذاهب الدخيلة التي تزعم إلى النحل الوافدة من المشرق مع المتأثرين بنحلة الخوارج تارة والمتأثرين بالنحلة الشيعية، والمتأثرين بالترعة الاعتزالية، فكانت الحال في حاجة إلى صمام أمان يحول دون الوقوع في حبال هذه النحل والنزاعات، وذلك بسعي رجال الدولة التي قامت في الأندلس لتجدد ذكرى بني أمية بعد سقوط دولتهم في المشرق إلى وضع ضوابط أمنية تأمن النجاح للخطوات التي سارت عليها منذ سنوات التأسيس نحو الاستقلال عن التأثيرات المشرقية وما كانت تستتبعه من ضعف الولاء للدولة الناشئة، ولذلك ظلت تتطلع إلى هذا الاستقلال بمحاولة توفير حد الكفاية وسد حاجة البلاد إلى «الأطر» العلمية الذي قد ينفذ من خلال دخولها ما لا يتفق مع تطلعات الدولة القائمة.

وقد أشار القاضي أبو بكر بن العربي إلى هذه الرغبة فربطها بالمذهب الفقهي كما ربطها بالقراءة المعتمدة، لأن هذه الرغبة كانت من أقوى العوامل في التمكين لها، وفي ذلك يقول في كتاب "العواصم": «ولما ظهرت الأموية على المغرب، وأرادت الإنفراد عن العباسية، وجدت المغرب على مذهب الأوزاعي، فأقامت في قولها رسم السنة، وأخذت بمذهب أهل المدينة في فقههم وقراءتهم، وكان أقرب إليهم قراءة ورش، فحملت روايته، وألزم الناس حرف نافع ومذهب مالك، فجزوا عليه وصاروا لا يتعدونه»³¹⁷.

وهكذا كان تدخل الدولة كما كان تدخل القضاء عاملا حاسما في تحقيق هذا التحول وقيام ذلك الاستقلال عن المشرق وهو أمر أمكن معه قيام الشخصية المغربية واستقلال نموذجها الحضاري، وانطباعه بطابعها الخاص الذي يمثل المذهب الفقهي، وتمثل القراءة المدنية أهم ركائزه وأجلى ملامحه، «وتجلت وحدة المذهب المالكي - كما عبر عن ذلك بعض الباحثين - في مظاهر مختلفة، كان أقلها الاستناد في قراءة القرآن منذ القرن الرابع، إلى قراءة نافع»³¹⁸ وتحقق المراد لدى السلطة القائمة من الاستقلال الكامل عن المشرق قراءة ومذهبا.

سابعاً: احتمال دخول نافع مع مالك في المراد بعالم المدينة الذي وردت الإشارة به في

الحديث:

³¹⁶ — تاريخ علماء الأندلس: 799/2، ترجمة 1393 ومثله في غاية النهاية: 212/2 ترجمة 3314.

³¹⁷ — العواصم من القواصم: 199/2.

³¹⁸ — الفقه المالكي والوحدة المذهبية: بحث للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله: ندوة الإمام مالك: 113/1.

أخرج الحافظ أبو عمر بن عبد البر من كتاب "فضائل مالك" للدولابي بسنده عن الحميدي عن سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: {يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة} قال الحميدي: قال سفيان: أظنه مالك بن أنس. وكذلك رواه إبراهيم بن المنذر الحزامي عن سفيان بن عيينة قال: وكان سفيان يقول: أراه مالكا.

قال ابن عبد البر: وهذا الحديث لا يرويه أحد إلا بهذا الإسناد، وهم أئمة كلهم: سفيان بن عيينة، إمام، وابن جريج مثله وأجل منه، وأبو الزبير حافظ متقن، وإن كان بعض الناس قد تكلم فيه، وأبو صالح السمان أحد ثقات التابعين، وكان أبو هريرة يقول فيه إذا نظر إليه: ما يضر هذا أن لا يكون من بني عبد مناف: ثم ذكر الحديث بأسانيد أخرى عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «يخرج طالب العلم من المشرق والمغرب، فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة، أو عالم أهل المدينة»³¹⁹، وقال أبو جعفر النحاس في كتاب "القطع والانتشاف": «وقرئ على بكر بن سهل عن عبد الرحمن عن أبي جعفر قال: حدثنا ابن عيينة عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمان تضرب فيه أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يوجد إلا عند المدينة».

قال مصعب الزبيري: قال ابن عيينة: نرى أن هذا الحديث «يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة» أنه مالك بن أنس. ثم ذكر رواية الإمام النسائي وفيها قول ابن عيينة: وأرجو أن يكون العالم مالك بن أنس»³²⁰.

فهذا الحديث في رواية سفيان بن عيينة مذيّل بتأويل سفيان له على أن المراد بعالم المدينة فيه مالك بن أنس فيما يراه أو فيما يرجوه، وهو اجتهد منه بناء على ملاحظة الحال، إذ لا يعرف أحد في زمنه شددت إليه الرحال وضربت إليه أكباد الإبل في طلب العلم من علماء المدينة يمكن أن يضاهي مالك بن أنس، إلا أن يكون نافع بن أبي نعيم الذي كان على هذه الصفة وإن كان في علم مخصوص هو علم القرآن قراءة وأداء ورسمًا، وحينئذ فإذا صح هذا التأويل يكون المراد عموم العلم، وعموم عالم المدينة أيضا، فيدخل نافع معه في هذا العموم، غير أن هذا الاحتمال الوارد من جهة لفظ الحديث، صالح لأن يصدق على أكثر من واحد من علماء المدينة في علمه وفي زمنه، ولذلك قال النحاس بعد سوق نص الحديث في معرض الشاء على نافع والتنويه بقراءته: «وإنما ذكرنا هذا، لأن نافعا ومالكا كانا في عصر واحد بالمدينة»³²¹.

³¹⁹ — الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لأبي عمر بن عبد البر: 19-21. وانظر صيغ الحديث ورواياته عند عياض في ترتيب المدارك: 68/2-71، وابن فرحون في الديباج المذهب: 13-14.

³²⁰ — القطع والانتشاف لأبي جعفر النحاس: 75-76.

³²¹ — القطع والانتشاف: 76/1.

وهذا التفات من النحاس إلى احتمال أن يكون كلاهما مرادا، ولأن الوصف المذكور في الحديث يتنا ولهما، ولاسيما على القول بأن المراد بعالم المدينة الجنس، لا الشخص المعين³²²، أي: أن عالم المدينة في ذلك الزمن يكون أرسخ قدما في العلم من عالم غيرها من الأمصار، وذلك فيما لمح إليه النحاس، كما يصدق على الفقه والآثار، فيكون الراجح أن المراد مالك بن أنس، يصدق بالمثل على القراءة وعلومها فيشترك معه نافع، فتكون الإشارة صادقة عليها. وقد سبق إلى هذا التخريج وحمله هذا الحمل العام، أبو المغيرة محمد بن إسحاق المخزومي من علماء المدينة³²³ قال: فيكون على هذا سعيد بن المسيب، لأنه النهاية في وقته، ثم بعده غيره ممن هو مثله من شيوخ مالك، ثم بعده مالك، ثم بعده من قام بعلمه، وصار أعلم أصحابه بمذهبه، ثم هكذا ما دام للعلم طالب، ولمذهب أهل المدينة إمام، قال عياض: «ويجوز على هذا أن يقال: هو ابن شهاب في وقته وفنه، والعمري³²⁴ في وقته وفنه»، ومالك في وقته وفنه...»³²⁵.

ودل هذا التوجيه على إمكان أن يقال أيضا: «ونافع بن أبي نعيم في وقته وفنه»، لا سيما مع إمامته في هذا الشأن، وشد الرحال إليه من سائر الأقطار والأمصار، واشتراكه مع مالك في الزمان والمكان والمشيخة، وتخريج طبقات رواة القراءة والعلم لعشرات السنين. فهذا الاحتمال لدخول نافع مع مالك في عموم مفهوم «عالم المدينة» يضاف إلى العوامل الستة الآتفة الذكر، لتكتمل عناصر الصورة التي جسدت هذا التلاحم بين إمامي دار الهجرة، والتفاعل بين مذهبيهما في القراءة والفقه، وذلك التكامل بين رجالهما في توطيد أسس هذه المدرسة المدنية في قراءة كتاب الله على السنة الماثورة عن أهلها، والتفقه فيه وفي السنن والآثار على منهاج السلف الماضين، من الصحابة والتابعين.

أخلاص الكبار:

لقد اعتدنا أن نقرأ في السير وتراجم الأعلام عن تحاسد الأقران، وغض بعضهم من أقدار بعض، بل ربما امتد ذلك إلى تنقيصهم والنيل منهم، إلى الحد الذي انتشر معه القول بسبب كثرة الوقائع: إنه لا يقبل قوله بعضهم في بعض، ورتبوا على ذلك قولهم: إن المعاصرة حجاب، لا سيما حين المزاخمة على المنصب والجاه.

وذلك ما كان يمكن أن يحدث ما بين مالك ونافع في مجرى العادة، وربما حدث ذلك حتى مع تدبجهما، أو رواية أحدهما عن الآخر وجلوسه إليه، فلقد عرفنا في التاريخ نماذج مما ثار فيه

³²² — ينظر في هذا ترتيب المدارك: 70/1-75.

³²³ — كان بالمدينة ثم خرج إلى العراق فولي القضاء بفارس، انظر ترتيب المدارك: 276/4.

³²⁴ — هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العمري الزاهد، ترجم له ابن حبان في مشاهير علماء المدينة

من التابعين، انظر كتابه مشاهير علماء الأمصار: 129 ترجمة 1009.

³²⁵ — ترتيب المدارك: 72/1.

الخصام بين بعض المشيخة وتلاميذهم القدماء³²⁶، ووصل إلى حد القطيعة وحوك المؤامرات وثوران المساجلات.

أما نافع ومالك فكانا فوق هذا المستوى، على الرغم من طول الصحبة، وإمكان التزاحم على الموقع، والمنافسة على الشهرة والإمامة، فترفعا عن حظوظ النفس، وارتقيا إلى التحلي بأخلاق الكبار.

ولقد رأينا كيف زجر نافع تلميذه عبد الله بن نافع حين رفع صوته بالقراءة وقال له: أو ما ترى مالك بن أنس³²⁷؟ يعني أنه لا مكان لإساءة الأدب بالتشويش عليه في حلقة القرية من مجلسنا.

ولقد عاش نافع في رحاب نفس المسجد النبوي الذي يعقد فيه مالك مجالسه الحديشية، وكان تلاميذها - كما تقدم - يثيرون المسائل التي من شأنها أن تستدعي الاختلاف في وجهات النظر كما رأينا في قضية الجهر باليسملة في الفريضة، ولكن كل تلك كان يتلقى بالصدر الرحب والسماحة الكاملة.

ولقد قيل أيضا عن نافع إنه أم في الفريضة بالمسجد النبوي ستين سنة³²⁸. كما جاء أنه أم ببعض الصحابة على ما ذكره أبو عمرو الداني في الطبقات نقلا عن محمد بن الحسن النقاش المقرئ أنه قال: بلغنا أن أبا الطفيل عامر بن واثلة³²⁹ وعبد الله بن أنيس³³⁰ صليا خلف نافع³³¹.

فهذه الإمامة المبكرة الطويلة الأمد، إلى جانب إمامة الإقراء بالحرم النبوي، من شأنها أن تعطى لنافع من المكانة والمترلة عند الناس ما قد يكون مدعاة للغيرة منه والسعي إلى إحاطة واحط منه في مجاري العادات.

ولكننا على العكس من ذلك نجد العلاقة الطيبة ما بين الإمامين في أوج صفائهما والتفاهم بينها بالغا أقصى مداه، كما تدل على ذلك الواقعة التالية التي سنجعلها مسك الختام لهذا العرض الذي خصصناه لهذين الإمامين.

³²⁶ — يمكن التمثيل لذلك بما ثار بين الحافظ أبي عمرو الداني وتلميذه أبي محمد بن سهل المرسى الذي لازم أبا عمرو الداني ثمانية عشر عاما، ثم رحل إلى المشرق فقرأ القراءات على جماعة من الأئمة، ثم جرت بينه وبين شيخه الداني عند قدومه منافسة ومقاطعة" انظر غاية النهاية(422/1) ترجمة 1783، وانظر في مثل ذلك سبب مغادرة أبي حيان لغرناطة إلى المشرق، وسبب مقتل الوزير لسان الدين بن الخطيب وغير ذلك كثير مما توترت فيه العلاقات بين بعض الأكابر وبعض الآخذين عنهم.
³²⁷ — انظر ترتيب المدارك: 36/2.

³²⁸ — نقله المنتوري في شرح الدرر اللوامع: 46/1 عن كتاب الجامع في القراءات للطبري.

³²⁹ — هو عامر بن واثلة الليثي الكناي آخر من مات من الصحابة على الإطلاق. توفي سنة 100هـ وقيل سنة 110هـ انظر

الخلاصة للخزرجي: 185.

³³⁰ — هو عبد الله بن أنيس الأنصاري: انظر الخلاصة: 191.

³³¹ — جامع البيان لأبي عمرو الداني: 43.

نافع ومشورة الخليفة في شأنه ليصلي به :

وكما يقال فإنه عند عرض المعدن على الخك يظهر مقدار صفاء جوهره، وكذلك هي الأحداث من شأنها أن تبدي عن صحة الوداد، وسلامة النفوس من الدخائل المعكرة لصفاء المودة وجمال العشرة، ولا أدل على هذا فيما يرجع إلى هذين الإمامين من القصة التالية التي وردت في المصادر التاريخية الموثوقة وعلى أكثر من صيغة، وهي المعيار علي ما ذكرناه.

أخرج الإمام الذهبي بالسند إلى المقدام بن داود قال: حدثنا عبد الله بن عبد الحكم قال: سمعت مالكا يقول: شاورني هارون الرشيد (170-193هـ) في ثلاثة: في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر رسول الله ﷺ ويجعله من ذهب وفضة وجوهر، وفي أن يقدم نافعاً إماماً في مسجد النبي ﷺ فقلت: أما تعليق الموطأ، فإن الصحابة اختلفوا في الفروع، وتفرقوا وكل عند نفسه مصيب، وأما نقض المنبر، فلا أرى أن يحترم الناس أثر رسول الله ﷺ. وأما تقدمتك نافعاً، فإنه إمام في القراءة لا يؤمن أن تبدر منه بادرة في الحراب فتحفظ عليه. فقال: وفقك الله أبا عبد الله. قال الذهبي: هذا إسناد حسن، لكن الراوي فهم في قوله: هارون، لأن نافعاً قبل خلافة هارون مات.³³²

قلت: يدل على صحة ما ذكره الذهبي من تعيين الخليفة صاحب المشورة في نافع ما حكاه المؤرخ الأديب عمر بن شبة النميري من أن الأمر يتعلق بالخليفة العباسي محمد المهدي (ت 168هـ): «وأنه قدم حاجاً في سنة إحدى وستين ومائة، فقال للملك بن أنس: إني أريد أن أعيد منبر رسول الله ﷺ إلى حاله التي كان عليها. فقال له مالك: إنه من طرفاء³³³، وقد سمر إلى هذه العيدان وشد، فمتى نزعته خفت أن يتهافت ويهلك، فلا أرى أن تغيره، فانصرف المهدي عن تغييره»³³⁴.

سقنا هذه الرواية لابن شبة لما فيها من تعيين الخليفة وتحديد التاريخ، وهي خلاف رواية ابن عبد الحكم ورواية أبي عمر بن عبد البر أيضاً في كتاب التمهيد التي جاء فيها أيضاً أن صاحب المشورة للملك هو الخليفة هارون الرشيد، وأنه قال للملك: أريد أن أهدم ما بنى الحجاج ابن يوسف -عامل الأمويين- من الكعبة، وأن أردّه إلى بناء بن الزبير -رضي الله عنهما - فقال له مالك: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناءه فذهبت هيئته من صدور الناس»³³⁵.

وقد صحح القاضي أبو الفضل عياض أن الخليفة المذكور هو محمد المهدي، وذكر أنه حين زار المدينة شاور مالكا في ثلاث أشياء: في الكعبة أن ينقضها ويردها على ما كانت عليه -يعني على بناء عبد الله بن الزبير الذي أعاد بناءها بعد أن احترقت وتداغت بفعل رمي جيش يزيد لها بالمنجنيق حينما التجأ إليها ابن الزبير في خلافة يزيد بن معاوية (ت 64هـ)- وشاوره في المنبر

³³² — سير أعلام النبلاء للذهبي: 97/8-98 ترجمة 10، وكانت وفاة نافع — رحمه الله — كما تقدم سنة 169هـ.

³³³ — نوع من الشجر ينبت كثيرا في مجاري الأودية وضياف الأنهار.

³³⁴ — تاريخ المدينة المنورة لعمر بن شبة: 18/1.

³³⁵ — التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 49/10-50.

أن ينقضه ويرده على ما كان عليه -يعني قيل الزيادة التي زادها فيه معاوية رضي الله عنه في خلافته³³⁶، قال: وشاوره في نافع بن أبي نعيم القارئ أن يقدمه للصلاة -يعني التراويح- أشار عليه أن لا يفعل، وقال: هو إمام، وأخاف أن يكون منه شيء في الغفلة فيحكى عنه³³⁷. ونقل الإمام أبو الحسن السخاوي مثل هذا الخبر، غير أن فيه أن المستشار لما لك هو نافع نفسه لا الخليفة، فروى عن عبد الله بن وهب عن مالك قال: استشارني نافع بن أبي نعيم في الإمامة، فأشرت عليه في أن لا يفعل، وقلت له: أنت إمام، وتحمل زلتك في الآفاق³³⁸. وذكر الإمام أبو القاسم الهذلي في كتاب "الكامل في القراءات" هذا الترشيح لنافع للإمامة بصورة أخرى فيها من الإغراء المادي ما يجعل الشيخ يطمح إلى تحقيق هذا المطلب طمعا في نيل المكافأة، وإن كان قد جعل القصة على لسان الرشيد لا على لسان والده المهدي. وقد جاء في هذه الرواية أن الرشيد سأل نافعا أن يصلي به لما قدم المدينة التراويح، وله بكل ليلة مائة دينار.

فشاور مالكا -رحمة الله عليهما- فقال له: «إن الله تعالى يعطيك المائة من فضله، وأنت إمام، فربما يجري على لسانك شيء، لأن القرآن معجز، وأنت محترم فلا تعاود في ذلك، لاعتماد الناس عليك، فتسير به الركبان فتسقط»³³⁹.

وذكر الشيخ المجاصي في شرحه على "الدرر اللوامع" لابن بري أن مالكا قال لنافع: «يا أبا عبد الله، لا تفعل، فإنك مصدق في قولك، وربما يقع منك السهو فيقتدي بك الناس»³⁴⁰. ومهما يكن الذي طلب من نافع أن يترشح لإمامة نافع التراويح بالخليفة: أهو المهدي أم غيره، وأيا كان الذي استشاره الخليفة في الموضوع أهو نافع نفسه، أم بوساطة مالك، فإن دلالة القصة صريحة في التعبير عن مكانة نافع عند الخليفة حتى احتاج إلى الاستشارة فيه، ومكانته عند مالك حتى أشفق عليه من أن يقع منه شيء من الزلل في القراءة فتسير به الركبان، فيحط ذلك من قدره عند الناس، وهي نصيحة محضها له، لاسيما وقد اقترن بالطلب ما اقترن به من الدنانير المائة عن كل ليلة جائزة له من الخليفة.

وقد استطاع مالك بحذقه وحسن تأتبه أن يصرف الخليفة عن مبتغاه مبينا له ما يترتب عليه، فدرأ الله به عن البيت الحرام والمنبر الشريف، كما درأ عن نافع ما توقعه مالك من

³³⁶ — انظر في خير هذه الزيادة تاريخ المدينة: 18/1، وترتيب المدارك: 105/2.

³³⁷ — ترتيب المدارك: 105/2-106.

³³⁸ — جمال القراء وكمال الإقراء لأبي الحسن علي بن محمد السخاوي: 445/2.

³³⁹ — لطائف الإشارات للقسطلاي: 93/1.

³⁴⁰ — شرح المجاصي على الدرر اللوامع (مخطوط).

قلت: وهذا الحذور الذي يفيد كلام الإمام المجاصي هو أبلغ أثرا وأولى بالاعتبار، لأنه يفيد أن صدور الخطأ، ولما كان الأمر كذلك، فإن كثير من يصلون خلفه سوف يحملون ما قرأ به على أنه صواب، وأنه وجه من القراءة واختاره نافع في التلاوة من نافع محتمل، واحترام الناس له من خلفه يجعلهم يكفون تنبيهه ومراجعته لتدارك الخطأ، وقرأ به في هذا المشهد العام، وإجلالهم لمقداره في إمامته وفضله يجعلهم يأخذون قراءته مسلمة، فيخشى أن يقتدوا به فيما يصدر منه على سبيل السهو، وهم لا يتوقعون ذلك منه، فيأخذون به ويستندون الرواية له عنه فيقرأون به ويقرنون.

النتائج التي سلك في بيائها والنصح للخليفة في شأنها ما جعله يسلم له، ويقف عند مشورته. وكان ذلك كله مما يدل على سمو أقدار هؤلاء الرجال، ورفيع مكانتهم في الزهد والورع وحفظ الحرمات.

وتلك أقباس من سيرة هذين الإمامين الجليلين، سعدنا بالعيش معها في هذه الأوراق، وحاولنا أن نستقرئ من خلالها معالم هادية تكشف عن هذه الرابطة المتينة بين إمامي دار الهجرة النبوية في زمنهما، وقديوي أهل المغرب التي توثقت بين أهله على أساسهما عرى الإيمان، وبينات القرآن، والتحمت مع هدايات السنن والآثار في وحدة جامعة رائعة رائقة عبر العصور والأزمان، والله الحمد في البدء والختام، وعلى رسوله الأمين أزكى الصلوات وأفضل السلام، وعلى آله وأصحابه الأعلام.

الدكتور عبد الهادي حميتو — آسفي

مصادر البحث:

- 1- أحكام القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ - 1988م.
- 2- أخبار القضاة محمد بن خلف بن حيان المعروف بوكيع - نشر عالم الكتب بيروت بتحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي.
- 3- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، تأليف الإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، نشر دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- 4- الأربعة المنبهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي المقرئ، تحقيق محمد بن مجقان الجزائري - نشر دار المغني - الرياض السعودية: الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م.
- 5- إنباه الرواة على أنباه النحاة، لأبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة.
- 6- الاقناع في القراءات السبع، لأبي جعفر أحمد بن علي ابن البادش تحقيق د/عبد المجيد قطامش، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى مكة المكرمة، الطبعة الأولى 1403هـ.
- 7- إيضاح الأسرار والبدائع في شرح الدرر اللوامع لابن الجراد (مخطوط).
- 8- إيضاح الوقف والإنباء لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق محي الدين رمضان، طبعة دمشق 1391هـ - 1971م.
- 9- إيصال السالك في أصول الإمام مالك، محمد محمد بن يحيى الولاقي، طبعة دار الرشد الحدينية - الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2003م.
- 10- الانصاف فيما بين علماء المسلمين في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب من الاختلاف، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري، تحقيق عبد اللطيف بن محمد جيلاني، نشر مكتبة أضواء السلف - الرياض الطبعة 1417/1هـ.
- 11- إبراز المعاني من حرز الأمان لعبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة، تحقيق محمود بن عبد الخالق محمد جسادو، طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة 1413هـ.
- 12- الإبانة عن معاني القراءات لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي تحقيق د/عبد الفتاح شلتي، نشر دار النهضة مصر.
- 13- أسماء شيوخ الإمام مالك بن أنس، لابن خلدون الأندلسي، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، نشر مكتبة الثقافة الدينية مصر.
- 14- آداب المعلمين، لمحمد بن سحنون القيرواني، ضمن كتاب الفكر التربوي العربي الإسلامي (الجزء الثاني) للدكتور محمد ناصر جامعة الكويت - نشر وكالة المطبوعات بالكويت، ط 1977/1م.
- 15- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، ط 1408/1هـ - 1988.
- 16- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العصرية - بيروت.
- 17- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي، تحقيق ج.س. كولان وإ.ليني يوفسال دار الثقافة - بيروت. ط 1400/2هـ - 1980م.
- 18- البيان عن عد آي القرآن، لأبي عمرو عثمان الداني تحقيق د/غانم قدوري محمد، ط 1414/1هـ - 1994م.

- 19- البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط4 لجنة التأليف والنشر بمصر.
- 20- تاريخ المدينة المنورة لأبي زيد عمر بن شبة النميري البصري، تحقيق فهم محمد شلتوت، طبعة دار التراث - بيروت ط1 / 1410 هـ
- 21- تاريخ علماء الأندلس لابن الفراضي، تحقيق إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب اللبناني.
- 22- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- 23- ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي أبي الفضل عياض، طبعة الأوقاف المغربية، الرباط.
- 24- تلخيص الفوائد وتقريب المتابعين لأبي البقاء بن القاصح، تعليق الشيخ عبد الفتاح القاضي، طبعة مكتبة الشروق الدولية.
- 25- تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث العربي، ط4.
- 26- تزيه الشريعة المرفوعة عن الأخيار الشنينة الموضوعة لابن عراف الكنائي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق، ط1/ 1979م، دار الكتب العلمية- بيروت.
- 27- التيسير في القراءات السبع لأبي عمر الداني، نشر دار الكتاب العربي ط2/ 1404هـ/ 1984م.
- 28- التزويل لأبي داود سليمان بن نجاح، تحقيق د/أحمد شرشال، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1421هـ.
- 29- التعريف في اختلاف الرواة عن نافع لأبي عمرو الداني تحقيق محمد السحاي- سلا- المغرب.
- 30- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر بن عبد البر، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، ط2 / 1402هـ.
- 31- تجريد التمهيد (التقصي) لأبي عمر بن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 32- تحفة النافع في أصل مقر الإمام نافع، لأبي وكيل ميمون بن مساعد المصمودي، مخطوط.
- 33- التحرير والتنوير في التفسير محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.
- 34- التبصرة في القراءات السبع لأبي محمد مكي بن أبي طالب تحقيق د/ محي الدين رمضان- الكويت 1405هـ- 1985م.
- 35- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الأندلسي، المكتبة التجارية بمصر، ط/ 1355هـ.
- 36- جامع بيان العلم وفضله وما جاء في روايته وحمله، لأبي عمر بن عبد البر، دار الكتب العلمية- بيروت.
- 37- جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوي، تحقيق د/ علي حسين البواب- مكتبة التراث - مكة المكرمة، الطبعة الأولى 1408هـ/ 1987م.
- 38- جامع البيان في القراءات السبع المشهورة لأبي عمرو الداني، تحقيق محمد صدوق الجزائري، دار الكتب العلمية، ط1- 2005م.
- 39- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) لحمد بن جرير الطبري، طبعة دار الفكر 1408هـ.
- 40- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) - دار الكتب المصرية- القاهرة 1351هـ - 1933م.
- 41- جزء فيه أحاديث نافع بن أبي نعيم للحافظ أبي بكر محمد بن إبراهيم المقرئ، تحقيق أبو الفضل الحوييني الأثري، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1- 1411هـ- 1991م.
- 42- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس لحمد بن فتوح الحميدي - نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م.
- 43- حرز الأماني ووجه النهائي (الشاطبية) لأبي القاسم الشاطبي، تحقيق محمد تميم الزعبي، طبعة دار المطبوعات الحديثة 1410هـ - 1990م.
- 44- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي- المطبعة الشرقية لصاحبها حسين بري - مصر.
- 45- خلاصة تذهيب تذهيب الكمال في أسماء الرجال للخزرجي - مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط3/ 1399هـ- 1979م.
- 46- الدرة الصقلية في شرح العقيلة لأبي بكر بن عبد الغني اللبيب، مخطوط الخزانة الحسينية بالرباط رقم 3893.
- 47- الدرر اللوامع في أصل مقر الإمام نافع لابن بري التازي مع شرحه لنجوم الطوابع للمرغني- دار الطباعة الحديثة - الدار البيضاء.
- 48- الدباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون - دار الكتب العلمية - لبنان.
- 49- الروض الجامع في شرح الدرر اللوامع لمسعود جموع- مخطوط.
- 50- رياض النفوس في طبقات علماء القروان للمالك، تحقيق البشير الكوش ومحمد العروسي، نشر دار الفسرب الإسلامي 1403 هـ.
- 51- طبقات إفريقية وتونس لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ببلنان.
- 52- الطبقات الكبرى لابن سعد- طبعة دار صادر- بيروت -لبنان.
- 53- طبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط1/ 1403هـ- 1983م.
- 54- طبعة النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق محمد تميم الزعبي، توزيع مكتبة دار الهدى- المدينة المنورة.

- 55- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق د/ شوقي ضيف، دار المعارف ط 2.
- 56- كتاب النقط بديل المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني، تحقيق د/ عزة حسن، دار الفكر، ط 2/ 1407هـ.
- 57- كتاب القطع والاستئناف لأبي جعفر النحاس المصري، تحقيق أحمد خطاب العمر مطبعة العاني - بغداد، ط 1 / 1398هـ.
- 58- الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة علميا لأبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهدلي البسكري (مخطوط).
- 59- لطائف الإشارات لفنون القراءات لأبي العباس القسطلاني، تحقيق الشيخ عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين - القاهرة (المجلد الأول) 1392هـ - 1972م.
- 60- لسان العرب لأبي الفضل ابن منصور - دار صادر - بيروت.
- 61- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار لشمس الدين الذهبي، تحقيق محمد جاد الحق، دار الكتب الحديثة الطبعة الأولى.
- 62- مشاهير علماء الأمصار لابن حبان البستي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 63- منجد القرنين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلمية 1400هـ - 1980م.
- 64- الموطأ للإمام مالك، تخرىج صدقي جميل العطار، دار الفكر، ط 4/ 1425هـ - 2005م.
- 65- معجم ما استمع لبعيد الله البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب ط 3/ 1403هـ - 1983م.
- 66- محاضرة الأستاذ إبراهيم صالح الحسيني من علماء نيجيريا، منشورة ضمن محاضرات ندوة الإمام مالك عن المذهب المالكي في إفريقيا، نشر وزارة الأوقاف المغربية/ الرباط.
- 67- المحكم في نقط المصاحف لأبي عمر الداني، تحقيق د/ عزة حسن، دار الفكر، ط 2 / 1407هـ - 1986م.
- 68- مناقب الإمام مالك للشيخ عيسى بن مسعود الزواوي مطبوع بأول المدونة، تحقيق حمدي الدمرداشي محمد - مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط 1/ 1419هـ - 1999م.
- 69- المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد التنوخي، تحقيق حمدي الدمرداش محمد، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط 1/ 1419هـ - 1999م.
- 70- المعيار العرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب لأبي العباس الوشرسي، نشر وزارة الأوقاف - المغرب.
- 71- مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الفكر، توزيع دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء.
- 72- معالم الإيمان في معرفة أهل القروان، لعبد الرحمان بن محمد الذباغ - المطبعة الرسمية العربية - تونس 1920م.
- 73- مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1 - 1401هـ - 1981م.
- 74- مسائل بن رشد، لأبي الوليد بن رشيد (الجد)، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، منشورات دار الآفاق الجديدة - المغرب ط 1/ 1412هـ - 1992م.
- 75- النشر في القراءات العشر لأبي الخريزاني الجزري، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
- 76- ناظمة الزهر في عد الآي للإمام أبي القاسم الشاطبي، ضمن مجموع تحاف البررة بالمتون العشرة، مكتبة مصطفى الباي الحلبي - مصر 1354هـ - 1935م.
- 77- صحيح الإمام البخاري بحاشية السندي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان
- 78- صحة أصول مذهب أهل المدينة لشيخ الإمام أحمد بن تيمية، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، نشر مكتبة الثقافة الدينية، ط 1/ 1988م.
- 79- صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشندي، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين طبعة دار الفكر، ط 1/ 1397هـ - 1978م.
- 80- العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي المعافري، تحقيق د/ عمار طالي مكتبة دار التراث - القاهرة، ط 1/ 1417هـ - 1997م.
- 81- عمل أهل المدينة لعطية محمد سالم، مكتبة دار التراث - المدينة المنورة، ط 1/ 1410هـ - 1989م.
- 82- غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين الجزري، بعناية ج. برجستراس دار الكتب العلمية بيروت، ط 2/ 1400هـ - 1980م.
- 83- فضائل القرآن ومعالمه وآدابه لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي، طبعة وزارة الأوقاف المغربية - 1415هـ - 1995م.
- 84- الفهرس الشامل للمخطوطات العربية والإسلامية، علوم القرآن، مخطوطات القرآن، الجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية. مؤسسة آل البيت (مآب).

- 85- الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة لحسين بن علي الرجائي الشوشاوي، تحقيق عزوري إدريس نشر وزارة الأوقاف المغربية-الرباط 1409هـ-1989م.
- 86- فنون الأفتان في عيون علوم القرآن لأبي الفرج ابن الجوزي، د/حسن ضياء الدين عتسر، دار البشائر، ط1/1408هـ-1987م.
- 87- الفقه المالكي والوحدة المذهبية، بحث للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، منشور ضمن أعمال ندوة الإمام مالك سوزارة الأوقاف المغربية-الرباط.
- 88- قراءة الإمام نافع عند المغاربة للدكتور عبد الهادي حميتو، منشورات وزارة الأوقاف المغربية: 1424هـ.
- 89- قراءة القراء المعروفين برواية الرواة المشهورين لأحمد بن أبي عمر الأندراي، تحقيق د/ أحمد الجناسي، مؤسسة الرسالة، ط2/1405هـ-1985م.
- 90- القصد النافع لبغية الناشئ والبارع على الدرر اللوامع في مقر الإمام نافع لأبي عبد الله الخراز، تحقيق التلميذ محمد محمود، دار الفنون للطباعة والنشر-سجدة، ط1/1413هـ.
- 91- القضاء في قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري محمد عبد الوهاب خلاف، مجلة عالم الفكر، المجلد 16 العدد 4 يناير-فبراير-مارس: 1986م.
- 92- سير أعلام النبلاء للذهبي، طبعة مؤسسة الرسالة-بيروت.
- 93- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية محمد بن مخلوف التونسي، نشر دار الكتب العربية، بيروت.
- 94- شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، نشر دار الكتاب العربية-بيروت 1399هـ-1979م.
- 95- شرح الإمام المجاصي على الدرر اللوامع، مخطوط خزانة ابن يوسف بمراكش رقم 105.
- 96- شرح الدرر اللوامع في أصل قصر الإمام نافع لأبي عبد الله المنتوري، تحقيق: الصديقي سيد فوزي، 1421هـ-2001م.
- 97- الوسيلة إلى كشف العقيلة لعلم الدين السخاوي، تحقيق د/ مولاي محمد الإدريسي الطاهري، مكتبة الرشيد-الرياض، ط3/1426هـ-2005م.
- 98- تاريخ المصنف الشريف للشيخ عبد الفتاح القاضي، نشر مكتبة الجندي-الحسين-مصر العربية.
- 99- المتحف في رسم المصنف، للدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، نشر دار الصحابة للتراث بطانطا-مصر العربية.
- 100- ألفية السيوطي في علم الحديث تصحيح وشرح الأستاذ أحمد محمد شاكر-نشر دار المعرفة-بيروت-لبنان.